جامعة حلب
كلية اللغات

العصر الجاهلي

ب. مولوي

الأدب والنصوص

الأعشى

الدكتور
محمد صبري الأشتر

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية بحلب

١٩٦٩ - ١٩٧٠

جامعة حلب
كلية اللغات

العصر الجاهلي

ب. مولوي

الأدب والنصوص

الأعشى

الدكتور
محمد صبري الأشتر

مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية بحلب
١٩٦٩ - ١٩٧٠

المقدمة

عُنينا ، في كلية اللغات ، بدراسة الأعشى وزهيرٍ في العصر الجاهلي ، والأخطلِ في العصر الأُمَويّ ، والنُّواسيُّ في العصر العباسي ، ولعل سببَ العناية ما لحظناه بينَ اولئك الشعراءِ من اتصالٍ في الغرض والأسلوب .

فالأعشى وضع ، في العصر الجاهلي ، أصولَ فن الخمر ، وأخذها عنه الأخطل في الاسلام ، وأبو نواس في العصر العباسي ، وقد أشار القدماء والمحدثون إلى تأثير الأعشى في هذين الشاعرين وغيرِهما ممن قالوا في الخمر .

كذلك تأثّر الأخطل ، في أداء معانيه ، بالمدرسة الأَوْسيّة التي كانت تُعنَى باختيار اللفظ وتجويدِه ، وتنقيحِ الأسلوب وتهذيبه ، واستمدادِ الصورِ من الواقع الحِسّي وتدقيقِها .

وهكذا كانتْ دراسةُ الأعشى مفيدةً لنا ، فقد سهّلتْ علينا ربْطَ بعضِ الظواهر الأدبية بالشعر الجاهلي ، وبيانَ تطورِ الغرضِ الواحدِ في العصور المختلفة .

وقد أحببْتُ في هذا الجزءِ من كتاب العصر الجاهلي أن أُقدِّم

دراسة مُوجَزَة للأعشى تُوضِّح حياته وشعره وأغراضه الفنية ، ولم يكن هدفي التَّعَمُّقَ والاستقصاء ، وإنما كان أن ألفِت نظَرَ الطلابِ إلى طريقة مُبَسَّطَةٍ في دراسة الشاعرِ تُبَصِّرُهم بما يأخذون من درْس للشعراء وللأغراض الشعرية .

وقد جاءت الدراسة في فصول قصيرة تناولت الأعشى وشعرَه ، واعتمدتْ ديوانَه بطبعتيْه الأوروبيةِ والعربية . وأحب أن أشير هنا إلى أني اعتمدت الطبعة الأوروبية أساساً في الدراسة ، وقد أشرت إليها بكلمة « الديوان » .

وآمُل أن تكون هذه الدراسةُ التحليليةُ وافيةً بالغرض الذي وُضِعَتْ لِأجْله .

محمد صبري الأشتر

الفصل الأول

حياة الأعشى

كان عصرُ الأعشى عصرَ تطور سريع شمِل مختلِف نواحي الحياة في الجزيرة العربية ، فكان الشعر في قِمّة نضجه ، وكانت اللغة الأدبية قد بانت معالِمها ، وقامت على أسُس مكينة ، واستقامتْ على طرُق معلومة ، ولم تبقَ في الجزيرة بيئة شعرية تنفرِد بقول الشعر أو إصدارِه إلى بيئة أخرى ، وإنما كانت البيئات الشعرية تتعاون ، ويظهر تعاونُها في مَظهر واحد مُشترَك ، وهكذا عاصر الأعشى نهضة الشعر ، وربما أسهم فيها ، وقد ذكر التاريخ أنه كان يتردّد كلَّ سنةٍ إلى سوق عكاظ ، وأن النابغة فضّله على شعراء المَوْسِم .

وامتاز عصره بأنه كان عصرَ اضطرابٍ فكْري وقلَق روحي ، فقد انتشرت في الجزيرة دِيانات مختلفة من يهودية ونصرانية ووثنية ، وكانت هذه الدّيانات تمازج ، وتولّدُ تيّاراتٍ تغمر نفوس العرب ، وتؤثر في وِجدانهم وشعورهم ، وربما كان الشعراء أصدقَ الناسِ في التعبير عما ساد النفوسَ من قلق واضطراب .

وإذا التمسنا مظاهر هذه الحالة الروحية في الشعر وجدناها سطحية بسيطة مرة ، قوية عميقة مرة أخرى ، فالأعشى تأثر بالدين ، فذكر الرهبان والقسس والصوامع والنواقيس ، وفكر في حوادث الدهر ، ونظمها في شعره للعظة والعبرة ، وأمية بن أبي الصلت تعبد ، ولبس المسوح ، وانتظر أن ينزل عليه الوحي ، وزهير بن أبي سلمى نظر ، وفكر ، فآمن بالله واليوم الآخر ، وورقة بن نوفل ترقب وقوع الحدث ، وطرفة بن العبد يئس من الحياة ، ولم يعرف غايتها ، فانصرف الى اللذات بعد شكه في الخلود ، ولعل هذا القلق هو الذي هيأ نفوس العرب لقبول الدعوة .

١ ـ اسمه ونسبه ولقبه :

الأعشى هو ميمون بن قيس ، وينتهي نسبه إلى بكر بن وائل من ربيعة (١) ، ويكنى أبا بصير (٢) ، ويلقب بالأعشى لضعف بصره ، وقد غدا لقبه اسماً له ، وربما دعي بالأعشى الأكبر (٣) تمييزاً له من بقية الشعراء الذين كانوا يعرفون بهذا الاسم . وقيل : سمي بالأعشى لبيت في معلقته ، هو قوله (٤) :

أأن رأت رجلاً أعشى أضر به ريب المنون ودهر مفسد خبل

---

(١) الأغاني . مصور عن طبعة دار الكتب ج ٩ ص ١٠٨

(٢) الأغاني ج ٩ ص ١٠٨

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٣٢٠

(٤) دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٣٢٠

ويُلقَّب بصنّاجة العرب لما في شعره من جَلَبةٍ ورنةٍ موسيقية ، وقد ذكر ابن قُتَيْبة أنه سُمّي بهـذا اللقبِ لأنه « أولُ مَنْ ذكر الصَّنْجَ في شعره »(١) فقال :

ومُسْتَجيبٍ لصوْتِ الصَّنجِ تسْمَعُهُ   إذا تُرجّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ

وانتقد صاحب الروائع(٢) أن يأخذ الأدباء بهذا النهجِ الذي يقوم على استنباط لقَبِ الشاعر من كلمة وردتْ في شعره . وذكر من هذا القبيلِ تلقيبَ زيادِ بنِ معاويةَ بالنابغة لورودِ كلمة « نبَغَتْ » في قوله :

وحلَّتْ في بني القَيْنِ بنِ جسرٍ   فقدْ نبغَتْ لهمْ منّا شؤونُ

غير أن تلقيبَ الأعشى بصناجةِ العرب لا يقوم على ورود لفظةِ « الصنجِ » في شعره وحسْب ، وإنّما يعتمد على قِيَمٍ موسيقية بثّها الأعشى في شعره .

٢ ـ موطنه :

نشأ الأعشى في قرية « مَنْفوحة » باليمامة ، وهي إقليم يقـع في الطرف الجنوبيّ الشرقيّ من نَجْد ، ويتكوّن من واديَيْن يمتدان من الشمال إلى الجنوب ، هما « العرض » و « قران » ، ويفصله عن الخليج الفارسي أرضُ البَحريْن ، ويتصل جنوبُه الغربيّ بأطراف اليَمَن ، وغربيُّه بالحجاز .

---

(١) الشعر والشعراء . تحقيق أحمد محمد شاكر . دار المعارف بمصر ٩٦٦ . ج ١ ص ٢٥٨

(٢) الروائع . فؤاد أفرام البستاني . العدد ٣١ / ٥

وعُرِف هذا الاقليمُ بالخِصْب والغِنى ، وامتاز مِمّا حولَه بحياة مستقرة ، فقامت في أنحائه قُرى صغيرة ، وانتشرتْ في أَرَضيه حصون قديمة من عِمارة « طَسْم » و « جَدِيس »[1] .

وعاشت في اليمامة قبائل بَكْر ، تجاورها بطون من عبدِ القَيْس وَتميم ، وانتشرت هذه بين اليمامة والبحريْن ، وامتدتْ إلى اطراف العراق .

وقامت « مَنْفوحة » على جانب وادي « العرض » ، وبها نشأ الشاعر في بَطْن من بطون بكر .

٣ ـ مولده :

ولا نعرف سنة مَوْلده ، ولا سنةَ وفاته ، ويُستدَلُّ من الأخبار المتصلة به ، والأسماءِ التي ذُكِرَتْ معه ، أنه عاش في آخِر العصر الجاهلي وَأوّلِ الاسلام ، وكاد يُسلِم لولا أن أبا سفيانَ اعترضه ، وردّه عن غايته ، وأغراه بمال وفير[2] .

٤ ـ أهلوه :

ولا نعرف شيئاً عن نشأته ، والرواة يذكرون أن أباه قيْسَ بنَ جَنْدَل « كان يُدْعَى قتيلَ الجوع ، وذلك أنه كان في جبل ، فدخل غاراً ، فوقعت صخرة من ذلك الجبلِ ، فسدّت فم الغار ، فمات جوعا »[3] .

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . شرح وتعليق الدكتور م . محمد حسين ، المطبعة النموذجية بالقاهرة . ص / ن

(٢) الأغاني ج ٩ ص ١٢٥ ـ ١٢٦

(٣) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٥٧

وإلى ذلك يُشير جِهنّام أحدُ شعراء بكر في هجائه للأعشى :

أبُوكَ قتيلُ الجُوعِ قيْسُ بْنُ جَنْدَلِ وخالُكَ عَبْدٌ مِنْ خماعةَ راضِعُ

ولا ندري أيُشير البيتُ إلى حادثة وقعت ، أم وُضِعَت الحادثة شرحاً للبيت ، على أن خال الأعشى لم يكن عبدا ، وإنما كان المُسيّبَ ابنَ عَلَس ، و « هو من شعراءِ بكرِ بنِ وائل المعْدودين »[1] وكان الأعشى راويتَه[2] .

٥ ـ زواجه وأسرته :

ولا نعرف شيئاً عن زَواجه إلاّ ما ذكره في شعره ، وما ساقه صاحبُ الأغاني ، فقد جاء فيه أنه « تزَوَّج من عَنَزَة ثم من هِزّان »[3] ، وجاء في موضعٍ آخَرَ منه أنه « كانت عندَ الأعشى امرأةٌ فأتاها قومُها فضربوه ، وقالوا : طلّقْها »[4] .

فأمّا ديوانُه فيشير إلى أنه طلّق امرأة يهواها ، ليتمتّع بغيرها وتتمتّعَ بغيره[5] ، وذهب بعض شُرّاحِ الديوانِ إلى أن المرأة المُطلّقة هي التي أُكْرِهِ على تركها ، وعناها صاحبُ الأغاني في روايته الثانية .

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٧٤
(٢) المصدر نفسه ص ١٧٤
(٣) الأغاني ج ٩ ص ١٢١
(٤) الأغاني ج ٩ ص ١٢٢
(٥) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٢٦٣

وأمَّا وَلَدُه فحادثته مع المُحلَّق تدل على انه كان له ولدٌ يقود بعيرَه في أسفاره (١) ، وقد حدَّثنا عن ابنة له في إحدى قصائده (٢) ، وصوَّرها حريصةً على استبقائه ، وتجنيبه الأسفار ، لأنها تخشى غوائلَ الزمن ، وجفاءَ الأهل بعدَ رحيله ، ولعلها البنتُ التي كان يُشاورها في أمر شعره (٣) .

٦ ـ تطوافه :

عُرِف الأعشى بأسفاره الكثيرة ، وتنقُّله في البيئات المختلفة ، وهذا أتاح له ثقافةً تاريخية اجتماعية قلَّ أن يُجاريَه فيها شاعر جاهلي ، ومثالُها ما نطالع في شعره من أخبار « طَسْم » و « جَديس » و « عاد » و « ثمود » ، وأخبارِ ملوكِ اليَمَنِ والفُرْس .

وقد كان يُسافر مُتكسِّباً بمدحه ، ويقال : « هو أولُ مَن سأَل بشعره » وانتجع به أقاصيَ البلاد (٤) .

ويُؤْخَذُ من شعره أنه كان يزور اليَمَن وعَدَن ونَجْران ، ويمدح من أربابها آلَ عبدِ المَدَان ، وسلامةَ ذا فائش ، والأسودَ العَنْسي ، وقيْسَ بنَ مَعْد يكرِب ، ويَفِد إلى الحجاز ليُوافي سوقَ عُكاظ ، ويُشارِكَ في موسمها الأدبي ، وينزلُ الأبْلقَ حصْنَ السَّمَوْأل ،

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ١١٤
(٢) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٤١
(٣) الروائع . العدد ٣١ / ح
(٤) الأغاني ج ٩ ص ١٠٩

ويمرّ بديار كلب إلى العراق ، فينزل الحيرة ، ويمدح الأسود بن المنذر والنعمان ، ويختلط بالعباد الذين اجتمعوا على النصرانية ، ثم يتوجه لعمان محاذياً الخليج الفارسي ، وقد يجاوز حدود الجزيرة إلى الشام ، أو حدود العراق إلى فارس ، فيمدح ملوكها ، وينقل إلى شعره بعض الألفاظ الفارسية .

ولا شكّ في أن الرواة تزيّدوا على الأعشى في نقل أسفاره ، حتى اجتمع منها في كتب الأدب أخبار تحمل رائحة الأساطير (١) ، فقد روي أنه كان يتّجر في « أثافيت » ، وهي قرية في اليمن « كان له بها معصر للخمر يعصر فيه ما جزل له أهلها من أعنابهم » (٢) . وفيها قوله :

أحبّ أثافيت ذات الكروم عند عصارة أعنابها

ومهما تكن أسفاره وما دار حولها من أخبار ، فقد أصاب بأماديحه شهرة واسعة ، وصار ذا منزلة في أحياء العرب ، فيروى أن المحلّق الكلابي كان رجلاً مئناثاً مُمْلِقاً له ثماني بنات ، فتعرّض للأعشى على طريق سوق عكاظ ، وأكرمه ، فمدحه الأعشى ، وذكر بناته ، فتزوّجن (٣) .

---

(١) في الأدب الجاهلي . الدكتور طه حسين . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٢٧ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢

(٢) شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو . طبعة ثانية . دار المشرق. بيروت . ص ٣٧٥

(٣) الأغاني ج ٩ ص ١٣ ـ ١٤

ويُروى أن امرأة جاءت الأعشى فقالت : إنّ لي بناتٍ قد كَسَدْن عليّ ، فَشَبِّبْ بواحدة منهن لعلها أن تنفق ، فَشَبَّبَ بواحدة فما شعر إلا بجزور قد بُعث به إليه ، فما زال يُشَبِّب بواحدة فواحدةٍ حتى زُوِّجْن جميعا (١) .

وبعض الأخبار تُصوِّر الشاعر مَخُوفا مَهِيبا ، ومنها مدحُه عامرَ ابنَ الطُّفَيْل ، وهجاؤه عَلْقَمَةَ بنَ عُلاثة ، ومُجْمَلُ خبرِه معهما أنه مدح الأسودَ العَنْسِي ، وتَرَحَّل عنه ، وقد نال عطاءه ، فمر ببني عامر ، وخافهم على ما معه من عطايا ، وطلب حمايتهم ، فأجاره عَلْقمةُ من كل شيء إلاّ الموت ، وأجاره عامرٌ من كل شيء ، وكانت إجارتُه من الموت تَعْني أن يبعث المُجير ديتَه إلى أهله إنْ مات عنـده ، فكان أنْ مدح الأعشى عامراً ، وهجا علقمة (٢) .

والخبرُ ، وما يتصل به من حديث ، صدًى للمُنافرة الشهيرة التي كانت بينَ علقمةَ وعامرٍ في الجاهلية ، واستمرتْ حتى قيامِ الاسلام ، فقد أسلم علقمة ، ولم يسلم عامر ، وحرّم الرسول على الناس إنشادَ ما قيل في المنافرة (٣) .

وقد شكّ الدكتور طه حسين في مدح الأعشى لعامر وهجائه لعلقمة ، وذكر أنّ المنافرةَ بينهما في الجاهليةِ واشتدادَ العصبيةِ حولَها

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ١١٨
(٢) الأغاني ج ٩ ص ١٢٠ ـ ١٢١
(٣) جمهرة أشعار العرب . دار صادر بيروت ١٩٦٣ ص ٦٨

في الاسلام كانتا سبباً لانتحال الشعر في مدح أحدِهما وهجاءِ الآخر ، وقد حُمِل الشعر على الأعشى ولَبيدٍ والحُطَيْئَةِ وعلى شعراءَ آخَرين .

كما شكّ في قِصّة المنافرةِ ذاتِها ، فقد وُضِعتْ في « الأغاني » وزُيِّنَتْ على نَحْوِ ما كانت القِصَصُ تُرَصَّعُ وتُزَيَّنُ بالسَّجْع والشِّعْر والغريب (١) .

وقصة الأعشى مع أبي سفيانَ تُصَوِّر مَنْزِلَته وسَيْرورةَ شعره ، فقد رُوِي أنه وَفَدَ إلى النبي ، ومدحه بقصيدة أولُها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْناكَ ليلةَ أرْمَدَا وعادَكَ ما عادَ السَّليمَ المُسَهَّدَا

فبلغ خَبَرُهُ قُرَيْشاً فرصدوه على طريقه ، وقالوا : إنه يَنهاكَ عن خِلال ويُحَرِّمُها عليك . قال : وما هُنّ ؟

فقال أبو سفيان : الزِّنا والقِمار والرِّبا والخمر . ثم قال له أبو سفيان : هل لك في خَيْر مما هَمَمْتَ به .

قال : وما هو ؟ قال : نحن وهو الآنَ في هُدْنة ، فتأخذُ مائةً من الابل ، وَترجِع إلى بلدك سَنَتَكَ هذه ، وَتنظرُ ما يصير إليه أمرُنا . فقال : ما أكرهُ ذلك . ثم قال أبو سفيان : يا معشرَ قريش ، هذا الأعشى والله لئِنْ أتى محمداً واتَّبعه لَيُضْرِمَنَّ عليكم نيرانَ العربِ بشعره ، فاجْمعوا له مائة من الابل . ففعلوا . فأخذها ، وانطلق الى بلده . فلما كان بقاع مَنفُوحةَ رمى به بعيرُه فقتله (٢) .

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٥٨
(٢) الأغاني ج ٩ ص ١٢٥ ـ ١٢٦

والقِصّة ظاهرةُ الوَضْع ، فقد ذكر صاحب الروائع[1] أنْ أقدَم نَصٍّ رَوَى القصةَ هو ما جاء في سيرة ابنِ هشام ، ويُستفادُ منه أن الرسول كان في مكّةَ حينَ قصده الأعشى يريد الاسلام ، ولم يكن الرسول آنذاكَ قد بلغ من القوة مبلغاً يجتذِب الشاعر ، وقد حرَّم الخمر في المدينة لا في مكة ، أضف إلى هذا أن القصة تصور الشاعرَ جاهلاً أمورَ الدين .

وقد تنافست القبائل العربية في الاسلام ، وتفاخرتْ بماضيها في الجاهلية ، ولا يبعُدُ أن تكون العصبيّةُ الرَّبَعِيَّةُ قد انتحلتْ قصةَ إسلامِ الأعشى وقصيدتَه في مدح الرسولِ مناهضةً لِمُضَرَ التي كان فيها النبوةُ والخلافة[2] .

وهكذا فأسفارُ الأعشى وما يتصل بها من أخبار وأحاديثَ تحتاج إلى ضبط وتحقيق لِيَميزَ الدارسُ المُنْتَحَلَ من الصحيح ، ويَعرِف وجْهَ الحق والصواب .

٧ - تأثره بالبيئات الشعرية :

مرَّ بنا أن الأعشى كان كثيرَ التنقل ، فقد رَحَل إلى بلاد كثيرة ، واتّخذ الشعرَ حِرْفةً له ، فمدح الأمراء والأقيال والملوك ، وجمع مالاً وافراً حتى قيل إنّه أولُ مَنْ تكسّبَ بالشعر ، واستقى من أسفارِه تجارِبَ ضمَّنَها شِعْرَه لتكون عِبْرةَ الناس .

(١) الروائع . العدد ٣١ / يد

(٢) في الأدب الجاهلي ص ٢٥٧ - ٢٥٨

غيرَ أنّ الرواة استغلّوا تطوافَ الأعشى، فوضعوا الأخبار، وانتحلوا الأشعار، ونسبُوها إليه لأسباب، بعضُها يتصل بالعصبيّة القبليّة، وبعضُها الآخرُ يرجع إلى العبث والفكاهة، أو يتصل بالشعوبيّةِ التي أرادت أنْ تُبيّن احتياجَ العرب إلى الفرْس في الجاهلية كما في الاسلام[1]، ومن هذا أن الأعشى زار كِسْرى، وانشده القصيدةَ التي أوّلُها[2]:

أرِقْتُ وما هذا السُّهادُ المؤرِّقُ وما بيَ مِنْ سُقْمٍ وما بيَ مَعْشَقُ

فَفُسِّرَتْ له، فلما سمعها قال: «إن كان هذا سهرِ لغيْرِ سُقْمٍ ولا عِشْقٍ فما هو إلا لِصّ»[3].

ويَعنينا من ذلك أنْ نعرف البيئاتِ التي أثّرتْ فيه، وأعانتْ على تكوين مذْهبِه الفني.

وأولَى البيئاتِ نجْد، وقد ذكر الرواة أن الأعشى نشأ في قريةٍ منفوحةَ باليمامة، وهي قريبة من نَجْدْ التي تُعْتَبرُ البيئةَ الشعريةَ الأصليّة، ومنها انتقل الشعرُ إلى حواضِر الحجاز، كما انتقـــل إلى العراق والشام مع الوفود والشعراء الذين كانوا يَقصِدون المَنَاذرة والغَسَاسنة لمدحِهم وَنوالِ عطائهم.

وقد سَهُلَ على الأعشى أن يَستقيَ الشعر من مَنْبعِه الأول، ويُتقِن اللغة، ويتمثّل روحَها، وتدلّ قصائدُه الطِّوال على أنه

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٥٧

(٢) ديوان شعر الأعشى. مطبعة ادلف هلزهوسن. ڤيانه ١٩٢٧ ص ١٤٥

(٣) الأغاني ج ٩ ص ١١٥

تملَّك زِمامَ اللغة ، وعرَف غريبَها ، كما في قوله (١) :

وَبَيْداءَ قفرٍ كبُرْدِ السَّديرِ   مشارِبُها داثِراتٌ أُجُنْ
قطعْتُ إذا خبَّ رَيْعانُها   بِدَوْسَرةٍ جسْرةٍ كالفَدَنْ
فأفنيتُها وتعالَلْتُها   على صحْصَحٍ كرِداءِ الرَّدَنْ

فهذا القولُ يدُلُّ على إحاطته باللغة ، وتمكُّنِه منها .

والبيئةُ الثانية هي البيئة المكِّيّة القرشية ، ويلْحَق بها الطائف ، وقد امتازتْ بنشاطِها التجاري والديني اللذيْن أثَّرا في حياة العربِ ولغتِهم ، إذ كانت القبائلُ تؤُمُّ مكَّةَ للحجِّ كلَّ عام ، ويفِد رجالها وشعراؤها على سوقِ عُكاظ لتبادُل السِّلَع وتناشُدِ الأشعار ، وقد وفد الأعشى إلى سوقِ عكاظ ، وأسهم في نشاطها الأدبي .

وذلك أعانَ على قيام نهضة أدبية وتكوينِ لغة عامة .

والبيئةُ الثالثةُ هي اليمَنُ وحضْرَموتْ ، وقد تردَّد إليها الشاعر ، فمدح الأقيال والتَّبابعة ، كما مدح نصارى نجْران وأحبارَها طمعاً في المال .

ولا نجِد أثراً لبيئة الشام في شعره إلا ذِكْرَه حِمْصَ في معرِض قولِه يصور تطْوافَه (٢) :

وقدْ طفتُ للمالِ آفاقَهُ   عُمانَ فحِمْصَ فأُورِ يشْلَمْ
أتيتُ النَّجاشيَّ في دارِهِ   وأرْضَ النَّبيطِ وأرْضَ العجَمْ

---

(١) الديوان ص ١٥ ـ ١٦
(٢) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٤١

وعلى الرَّغم مِنْ أنَّ الأعشى وَفَد مع حسَّانَ إلى آل جَفْنةَ فانه لم يمدحْهم كما مدحهم حسَّانُ والنابغة .

والبيئةُ الخامسةُ هي الحيرة ، وقد كانت أقوى البيئاتِ تأثيراً في حياة الأعشى وشعره ، والحقُّ أنه مَدِينٌ بِغَزَلِه وخَمْرِيَّاتـه الى هذه البيئةِ التي نَأَتَرَتْ بمظاهر الحضارة الفارسية المادية ، ويَسَّرَتْ للناسِ سُبُلَ اللهو . وقد اختلف الأعشى إلى مجالس الشراب والغناء ، فشربَ الخمر ، واستمع لِغناء القيانِ ، ورنَّةِ العيدانِ والمزَاهيرِ والصَّنْج (١) ، وكان في الحيرة شعرٌ يصور حياة اللهو ، فعَدِيُّ بنُ زَيْد تغنَّى بالخمر كما في قوله (٢) :

وَدَعَوْا بالصَّبُوحِ يَوْماً فجاءَتْ	قَيْنَةٌ في يَمِينها إبْرِيـــقُ
قدَّمَتْهُ على عُقارٍ كَعَيْنِ الدِّ	يكِ صَفَّى سُلافَها الرَّاووقُ
مُرَّةٌ قَبْلَ مَزْجِها فاذا مـــا	مُزِجَتْ لَذَّ طَعْمُها مَنْ يَذُوقُ
وَطَفَتْ فوقَها فَقَاقِيعُ كاليَـــا	قُوتِ حُمْرٌ يُثيرُها التَّصْفِيقُ
ثم كان المِـزاجُ ماءَ سحـــابٍ	لا صَدىً آجِنٌ ولا مَطْرُوقُ

وقد سمع الأعشى هذا القولَ وغيرَه من أقوال عَدِيٍّ ، وتأثَّر بها في خَمْرِيَّاته ، وكان في الحيرةِ وغيرِها من أنحاءِ العراق شُعراءُ أسهموا في تكوين اللغةِ الأدبيةِ في آخر العصر الجاهلي .

---

(١) الديوان ص ٤٦

(٢) شعراء النصرانية قبل الاسلام . الأب لويس شيخو . طبعة ثانية . دار المشرق . بيروت . ص ٤٦٧

وإلى ذلك كانت إمارةُ المَنَاذِرة تجتذب الشعراء، فيفدون إليها لمدح الأمراء والملوك، وأخذ مواهبهم، وكانت الامارةُ تمارس سيادتها على نجد وما حولها، فتؤثر في حياة القبائل، وتصطنع بعض الشعراء من ذوي الشهرة والمكانة ليكونوا دعاةً لها. فقد روى أن الأعشى قال له النعمانُ بنُ المنذر: لعلك تستعين على شعرك هذا، فقال له الأعشى احبسني في بيت حتى أقول. فحبسه في بيت، فقال قصيدته التي أولها (١):

أأزمعتَ من آلِ ليلى ابتكارا وشطَّتْ على ذي هوىً أنْ تزارا

وكان في الحيرة عناصرُ عربية تنتمي إلى قبائلَ عِدّة، وتختصم فيما بينها، فينشأ عن خصامها نشاطٌ قويٌّ يُرغّب عربَ الجزيرة في الهجرة إلى العراق.

وهكذا كان وجودُ العربِ في العراق، وقيامُ إمارة المَنَاذرة، ووفودُ الشعر إليها من الجزيرة، ونظمُه في العراق، أسباباً مُعينةً على قيام نهضة أدبية، وتكوينِ لغةٍ عامّة.

ونلحظ تأثيرَ بيئةِ العراق في غزل الأعشى في قوله (٢):

وقد أراها وسْطَ أترابها في الحيّ ذي البهجةِ والسّامرِ
كدُمْيةٍ صوّرَ محرابُها بمُذهَبٍ في مَرْمَرٍ مائرِ
أو بيضةٍ في الدِّعْصِ مكنونةٍ أو درّةٍ شيفَتْ لدى تاجرِ
يشفي غليلَ النفسِ لاهٍ بها حوراءُ تسبي نظرَ الناظرِ

---

(١) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٥٨
(٢) الديوان ص ١٠٤

فهو يُشبِّه المرأة بالدُّمْية والبيْضةِ المكْنونة والدُّرَّةِ المجلُوَّة، وهي صور مُتشرِّفة تُمثِّل حياة متحضرة، وتَبعُدُ عن حياة البادية.

والمرأةُ التي تُحيي الموْتى إنما تكون في المُجتَمَعاتِ المُتحضِّرة، كما في قوله (١):

لَوْ أسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها عاشَ ولمْ يُنقَــلْ إلى قابِرِ

وهي مبالغةٌ لا نجدها في المجتمع البدوي.

ويبدو تأثيرُ البيئةِ في خَمْرِيَّاته في قوله (٢):

وَصهْباءَ صِرْفٍ كلون الفُصُو صِ باكَرْتُ في الصُّبْحِ سوَّارَها
فطَوْراً تَميلُ بنـا مُرَّةً وطوراً تُعالِــجُ إمْرارَهـا
تَكادُ تُنَشِّي ولمَّا تُذَقْ وتُنشِي المَفاصِــلَ إفْتارَها
تَدِبُّ لها فَتْرةٌ في العِظام وتُنشي الذُّؤابةُ فوَّارَهـا

فهو يصف لونَ الخمر ومِزاجَها ومَذاقَها وأثَرَها في الشُّرْب.

ولعل من مظاهر تأثيرِ البيئـة الفارسية وقوعَ الفاظ فارسية في شعره، ويُعلَّلُ هذا بأن العراقَ كان يعيش في ظِلِّ الفُرْس، وقد تَردَّد الشاعر إلى ملوكهم، فكثُرَت الفارسيةُ في شعره كقوله (٣):

فلأَشرَبَنَّ ثمانياً وثمانيـاً وثمانَ عشْرَةَ واثنتيْنِ وأرْبعَا
مِنْ قَهْوَةٍ باتَتْ بِفارِسَ صَفْوَةً تدَعُ الفَتَى مَلِكاً يَميلُ مُصرَّعَا

(١) الديوان ص ١٠٥
(٢) الديوان ص ٢١٤
(٣) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٥٨

بالجُلُّسَانِ وَطيِّبٍ أرْدَانُـــه   بالوَنِّ يَضرِبُ لي يَكُرُّ الاصْبَعَا
والنايَ نَرْمٍ وبَرْبَطٍ ذي بُحَّةٍ   والصَّنْجُ يَبْكِي شَجْوَهُ أنْ يُوضَعَا

على أن الفارسية كَثُرَتْ في شعره كَثْرةً لا نجدها في شعر عَدِيِّ بنِ زَيْد الذي عاش في العراق ، وَوَفَد على ملوك فارس ، وهنا يَصِحُّ لنا أن نتساءَل : أليس من الجائز أن الشعوبيـــةَ استغلَّتْ تطْوافَ الأعشى في البلاد ، فانتحلتْ أشعاراً نسبَتْها إليه ، وضَمَّنَتْها ألفاظاً فارسية لِتُبَيِّن احتياجَ العرب إلى الفرس في الجاهليـــة كما في الاسلام ؟.

٨ ـ مذهبه في الحياة :

عُرِف الأعشى بأنه صاحبُ لَهْو ومُجون ، وظهر هذا في أخباره وأشعاره ، فقد كان يُقيم في منفوحة ، ثم يخرج لِيتَكسَّبَ بالمديــح ، فيَقصِد الأشراف والأمراء ، ثم يَرجِع إلى قومه لِينعَمَ بما كَسَب ، ولِيَذوقَ أطايبَ الحياة من شراب وغناء ونساء .

وقد عَرَف في منفوحةَ هُرَيْرَةَ التي شَبَّب بهـا في معلقته ، ومَطلَعُها (١) :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ   وَهلْ تُطيقُ وَدَاعاً أيُّها الرَّجُلُ

وكانت هريرةُ أَمَةً سوداءَ لِحسَّانَ بنِ عَمْرو بنِ مرشد (٢) .

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٥٥

(٢) الأغاني ج ٩ ص ١١٣

وقيلَ : « كانت هريرةُ وخُلَيْدَةُ أختين قَيْنَتَيْن كانتا لِبِشْرِ بنِ عَمْرو بنِ مَرْثَد ، وكانتا تغنيانه النَّصْب ، وقدِم بهما اليمامة لمّا هرب من النعمان »(1) .

وعرَف قتْلة ، فقال يصفها(2) :

يَشفِي غليلَ النفسِ لاهٍ بها حوْراءُ تصْبِي نظرَ الناظرِ

وعرف غيرَ هريرة وقتلة ، وأسرف على نفسه في نُشدان المرأة وتعاطي اللذات ، حتى عده ابن سلاّم بمّن « كان يتعَهّر ولا يُبقِي على نفسه ، ولا يتَستّر »(3) ، وقرَنه بامرىء القيس في هذا السبيل .

وكما شُغِف بالمرأة أدْمَنَ الخمرة ، فقد كان يشربها في أسفاره ، ويَتّجِر بها ، ويثوبُ إلى داره ، فيجمع الفتيان من حوْلِه للشراب وسماع الغناء ، وظل هذا ديْدَنَه ، فلما مات تحَوّل الفتيان إلى قبره يتَنادمون عليه .

جاء في الأغاني قولُ أحدِهم : « قبْرُ الأعشى بمنفوحة ، وأنا رأيتُه ، فاذا أراد الفتيانُ أن يشربوا عرَجوا إلى قبره ، فشربوا عندَه ، وصبّوا عندَه فضَلاتِ الأقداح »(4) .

وذكر صاحب الأغاني أنّ أحدهم أتى اليمامةَ والياً عليها ، فمرّ

---

(1) الأغاني ج ٩ ص ١١٣

(٢) ديوان الأعشى . المطبعة النموذجية ص ١٣٩

(٣) طبقات الشعراء . شرح محمود محمد شاكر . دار المعارف ص ٣٤ ـ ٣٥

(٤) الأغاني ج ٩ ص ١٢٦

بمنفوحة ، وسأل عن قبر الأعشى ، فاذا هو بفِناء بيته ، فعدل إليه ، فاذا هو رَطْب ، فسأل عن السبب ، فقيل له : إن الفتيان يُنادمونه ، فيجعلون قبره مَجْلِسَ رَجُلٍ منهم ، فاذا صار إليه القدح صبّوه عليه (١) .

والحقُّ أن الأعشى كان مفطوراً على خُلُق الفتيان كما صوّره طرفة في معلقته ، وهذا الخُلُقُ يتمثّل في نجدة القبيلةِ إبّانَ الحرب ، وطلبِ المُتعة في السِّلم ، والمُتعةُ ألوان ؛ فهي شربُ الخمر ، ودعوةُ الناس إلى شُرْبها ، وعقدُ مجلس الشراب والغناء ، واللهوُ بالنساء ، وكذلك كان الأعشى ، فهو يَذود عن قومه ، ويفخر بقبيلته ، ويَشرب الخمر ، ويَسمع الغناء ، ويَتمتّع من المرأة ، فالخمرة مبذولةٌ لِمنْ يَستطيعها ، والمرأةُ لا يَفوز بها إلا الجَسور .

فالأعشى تنقّل في البلاد تَنَقُّلاً جعله يَتغيَّر ويَتجدَّد ، فقد خالط بيئاتٍ مُختلفة ، وتأثّر بما شاع فيها من فِكَر وأخبار وعادات ومُعتَقَدات ، وانعكس هذا في تفكيره وشعوره ، فنظر وفكّر ، وجدَّ ولها ، ونَعِم واخشَوْشن في حياته .

وكان يبذل ماله في سبيل لذاته ، فاذا كان في يُسْر اشترى الخمر بثمن غالٍ كما في قوله (٢) :

فَقُمْنا ولَمَّا يَصِحْ دِيكُنـا ... إلى جَوْنَةٍ عِندَ حَدّادِهـا
تَنَخَّلها مِنْ بِكار القِطـا ... فِ أُزَيْرِقُ آمِنُ إكسادِها

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٢٦ – ١٢٧
(٢) الديوان ص ٥١ – ٥٢

فقلنا له : هذه هاتها بأدماء في حبل مقتادها
فقال : تزيد وني تسعة وليست بعدل لأندادها
فقلنا لمنصفنا : أعطه فلما رأى حضر شهادها
أضاء مظلته بالسرا ج ، والليل غامر جدادها
دراهمنا كلها جيد فلا تحبسنا بتنقادها

وإذا كان في عسر اشترى الخمر بثمن بخس .

وكان يحفى حينا ، وينتعل حينا آخر كما في قوله (١) :

إما ترينا حفاة لا نعال لنا إنا كذلك ما نحفى وننتعل

ومهما يكن من أمر فقد تقلب الأعشى في أحوال عدة ، فترجح بين الفكر والمعتقدات ، وبين الجد والعبث ، وبين الغنى والفقر ، وكان ذلك نتيجة أسفاره وتنقله في البلاد .

٩ - دينه :

وقعت في شعر الأعشى أبيات وصور دلت على تأثره بالنصرانية ، ورد بعض الباحثين هذا الأثر إلى نشأته الأولى في اليمامة ، وإلى وفوده على البلاد التي شاعت فيها النصرانية من مثل نجران وإمارة الحيرة وإمارة غسان .

فقد ذكر صاحب الروائع (٢) ، نقلاً عن الأب لويس شيخو ، أن

---

(١) الديوان ص ٤٥

(٢) الروائع . العدد ٣١ / و ، يح

كثرة سكان اليمامة كانوا من بني حَنيفةَ الذين انتشرتْ فيهم النصرانية ، وأن الأعشى اتصل بأميرهم هَوْذَةَ بنِ علي ، وكان هذا قد أسر قوماً من تميم ، وأطلقهم في عيد الفُصْح ، فقال الشاعر يمدحه (١) :

بهِمْ تقرَّبَ يومَ الفتْحِ ضاحيةً يَرجو الالهَ بما سَدَّى وما صَنَعا

ورُوِيَتْ كلمةُ (الفُصْح) مكانَ (الفتْحِ) في قوله (٢) :

بهِمْ تقرَّبَ يومَ الفُصْحِ ضاحيةً يَرجو الالهَ بما سَدَّى وما صَنَعا

ومدح الأعشى قَيْسَ بنَ مَعْدِ يكرِب ، فرفعه فوقَ الراهبِ المُعتكِف في هيكله أمامَ صليبه (٣) :

وما أَيْبُليٌّ على هَيْكَلٍ بَناهُ وَصلَّبَ فيهِ وَصارا
يُراوِحُ مِنْ صَلَواتِ المليـ ـكِ طَوراً سُجُوداً وطوراً جُؤَارا
بأَعظَمَ مِنْهُ تُقىً في الحسابْ إذا النَّسماتُ نفَضْنَ الغُبارا

وأقسم براهب اللُّج ، وبالكعبة التي بناها قُصَيْ وابنُ جُرهُم (٤) :

فانّي وثَوْبَيْ راهبِ اللُّجِّ ، والتي بَناها قُصَيٌّ والمضاض بنُ جُرْهُمِ
لئِنْ جَدَّ أسبابُ العداوةِ بيننا لَتَرْتَحِلَنْ مِنّي على ظَهْرِ شَيْهَمِ

وأقسم بربِّ الساجدينَ في العَشيّات ، وبربِّ راهب النصارى يَدُقّ

---

(١) الديوان ص ٨٧
(٢) الديوان . المطبعة النموذجية بالقاهرة ص ١١١
(٣) المصدر نفسه ص ٥٣
(٤) المصدر نفسه ص ١٢٥

الناقوس (١) :

فانّى ورَبّ الساجدين عشيّةً   وما صكّ ناقوسَ النصارى أبيلُها
أصالحكم حتى تبوءوا بمثلها   كصرخة حبلى بشّرتها قبولُها

ويشرب الخمر إبّان ضَرْبِ النواقيس (٢) :

وكأسٍ كعَيْنِ الديك باكرْتُ حدّها   بفتيانِ صدْقٍ والنّواقيسُ تُضْرَبُ

وقوّى خبرَ تأثّر الأعشى بالنصرانية أن راويته يحيى بن متّى كان نصرانيا ، فقد جاء في الأغاني أن ابنَ حرْب قال (٣) : « قال لي يحيى بنُ متّى راويةُ الأعشى ، وكان نصرانيا عباديّاً ، وكان معمّرا ، قال : كان الأعشى قدَريّاً ، وكان لبيد مُثْبتا . قال لبيد :

منْ هداهُ سُبُلَ الخيْرِ اهْتدَى   ناعِمَ البالِ ومَنْ شاءَ أضَلّ

وقال الأعشى :

استأثَرَ اللهُ بالوفاءِ وبالـ   ـعدْلِ وَوَلّى الملامةَ الرَّجُلا

قلتُ : فمِنْ أيْنَ أخذَ الأعشى مذْهبَه ؟ قال : مِنْ قِبَلِ العباديين نصارى الحيرةِ كان يأتيهم يشتري منهم الخمرَ فلقّنُوه ذلك » .

فالأعشى حصّل في تطْوافه ثقافةً تاريخية واجتماعية ودينيـة

---

(١) الديوان . المطبعة النموذجية بالقاهرة ص ١٧٧
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٣
(٣) الأغاني ج ٩ ص ١١٢ – ١١٣

ظهرت آثارها في شعره ، واتخذ من الرهبان والأديرة والنواقيس مادةً للوصف والتصوير .

والحق أن الاشارة إلى عيد الفصح ، وضرب الناقوس ، وتشبيه قيس بن معد يكرب بالراهب في صلاته وتقواه ، والقسم برب الساجدين والراهب المتعبد لا ينهض دليلاً على نصرانية الشاعر (١) ، ومع أنه أدرك الاسلام ، ووفد على الرسول مادحاً كما قيل ، فانه لم يعتنق الدين الجديد ، ولم ينظمه أحد في سلك الاسلام . ولا يمكن أن يعد نصرانياً على الرغم من قوله بالطبيعة الواحدة ، وصلاته بالمناذرة والعباد من نصارى الحيرة (٢) ، وأثر النصرانية في شعره سطحي لا يثبت أخذه بها ، وإنما كان شأنه شأن بقية الشعراء الذين صوروا الفكر الدينية في محيطهم من غير أن يعتنقوا ديناً ، ويصدروا عنه فيما قالوا .

١٠ ـ وفاته :

جاء في الأغاني أن الأعشى انطلق إلى بلده بعد أخذه مائةً من الابل من قريش ، جزاءَ ارتداده عن الاسلام ، فلما كان بقاع منفوحةَ رمى به بعيره فقتله (٣) .

---

(١) الديوان . المطبعة النموذجية بالقاهرة ص / ت

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٣٢٠

(٣) الأغاني ج ٩ ص ١٢٥ ـ ١٢٦

وأشار ثعلب ، في شرحه ديوانَ الأعشى ، إلى أنه مكث زمينأ باليمامة (١) ، ثم مات فيها .

وذكر صاحب الأغاني أن قبره بفِناء بيته في منفوحة ، وأن الفتيان ينادمونه ، فيجعلون قبرَه مجلِسَ رَجُلٍ منهم ، فاذا صار القدحُ صبّوه عليه (٢) .

فأمّا موته بقاع منفوحةَ فيدخل في إطار القِصّة التي يَغلِب عليها الوضْع ، وأمّا مُنادمتُه على قبره فتَمثيل ما كان يَتصوّرُه الناسُ من حبه للخمرِ وتهالُكِه عليها .

---

(١) الديوان ص ١٠١

(٢) الأغاني ج ٩ ص ١٢٦ ـ ١٢٧

الفصل الثاني

أغراضه

١ - غزله :

مرَّ بنا أن الأعشى قال في فنونٍ من الشعر أَظْهَرُها الغزلُ والخمر والمدح والفخر ، وهذه الأغراض أَدَلُّ من غيرها على شخصيته ، فقد كان صاحبَ لذة ، يجد في المرأة والخمرة ما يُرَوِّي ظمأه ، وكان المدحُ وسيلتَه إلى كَسْب المال ، فقصد الأشراف والأمراء والملوك يمدحهم ، وينال عطاءهم ، وَيتمتَّع بما كَسَب .

وقد كان صادقا في غزله وخمره لأنهما قاما على مُؤَثِّر داخلي ، وكان صادقا في مدحه لأنه احتاج إلى المال الذي يُعينه على لذته ، وهكذا صوَّر المدحُ طمعَه في المال أكثرَ مِمَّا صور إكبارَه للممدوح ، وبتعبير آخَرَ قام شعره في المدح على مُؤَثِّر مادي خارجي .

وتلك الفنونُ الثلاثةُ تمثل شخصيته ، فهي تصور نفسه ، وَجوانبَ من حياة المجتمعات التي خالطها في تطوَافه .

وإذا التمسْنا شخصية الشاعر عِنْدَ القدماء وجدناها قائمةً على تلك الفنون ، فقد أشار كثيرون إلى غزله وخمرياته من جهة ، وإلى غَزارة شعره وطول قصائده من جهة أخرى .

وقد كان الأعشى تزوّج من عَنَزَةَ ثم من هِزّان ، وأُكْرِه على تطليق إحدى زوجاته ، وهذا يَعني أنه لم يَعرِف حياة آمنة مُطمئنّة .

كذلك عَرَف نساءً بعضُهن قِيانٌ كهريرة وقتلة ، وبعضُهن بغايا لَقيتَهُنّ إبّانَ تطْوافه في البلاد ، وقد صوّرَهُنّ في قوله (١) :

تُنازِعُني إذْ خلَتْ بُرْدَها مُفضَّلَةً غيرَ جلبابِها
فلَمّا التقَيْنا على بابِها ومَدّتْ إليَّ بأسْبابِها
بذَلْنا لَهَا حُكْمَها عِندَنا وجادَتْ بِحُكْمي لأُلْهى بِها
فطَوْراً تكونُ مِهاداً لنا وطَوْراً أكونُ فيُمْلَى بها

فهو يُجاذِبها ثوبَها في خِدْرها ، فتتأبَّى عليه ، ثم يَقُصّ خبره معها حين التَقَيا على بابها ، فقد مَدّتْ له حِبالَ وَصْلها ، وطلبتْ ما شاءت مِنْ أجْر ، وبذل لها ما أرادتْ ، وجادتْ عليه بما اشتهى منها .

وهذا الوصفُ الأباحيُّ يدخلُ في باب الأدب الصريح المكشوف الذي افتتحه امرُؤُ القيس للشعراء مِنْ بعْدِه ، فقد قال في معلقته (٢) :

---

(١) الديوان . المطبعة النموذجية ص ١٧١

(٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . الأنباري . دار المعارف ١٩٦٣ ص ٣٩ – ٤١

فمِثلِكِ حُبلى قد طرقتُ ومُرضِعٍ فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحوِلِ
إذا ما بكى من خلفِها انصرفتْ لهُ بشِقٍّ وتحتي شِقُّها لم يُحوَّلِ

وهكذا عرف الأعشى أصنافاً من النساء منهنّ الزوجة ، والقَيْنة ، والبَغيّ .

وقد ألهمته المرأةُ القول ، فتغزّل بها ، ودار غزله على وصفها ، وتصويرِ شعورِه نحوَها ، وقد كانتْ في نظره وسيلةً من وسائل اللهو ، فهي جسدٌ يُروّي ظمأه ، ويُطفيء شهوته العارمة ، وقلّما سما بها فوقَ عالَمِها المادي ، وقد يعبّر عن عاطفة البين والشوق ، أو يقص ذكرياتِ شبابه من غير أن يحزَن على ما فاته ، وربّما لذّه الرجوعُ إلى ماضيه .

ويتّسم غزله برِقة وخُنوثة وخَلاعة ، وهي صفات قلّما عهدْناها في غزل الجاهليين ، ولعله تأثّر في ذلك بما عرف في الحيرة وغيرِها من البيئات العربية المُتحضّرة .

وقد لاحظ القدماء رِقّته وخُنوثته في غزله ، فقال الشعبي (١) :
« الأعشى أغزَلُ الناس في بيت ، وأخنثُ الناس في بيت ، وأشجعُ الناس في بيت ، فأمّا أغزلُ بيت فقولُه :

غرّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها تمشي الهُوَينا كما يمشي الوجي الوحِلُ

وأمّا أخنثُ بيت فقولُه :

قالتْ هريرةُ لمّا جئتُ زائرَها ويْلي عليكَ وويلي منكَ يا رجُلُ

(١) الأغاني ج ٩ ص ١١٢

وَأَمَّا أَشْجَعُ بيتٍ فقولُه :

قالوا الطِّرادُ فَقُلْنا تِلْكَ عادتُنا أَوْ تَنْزِلونَ فإنَّا مَعْشَرٌ نُزُلُ

كذلك لاحظ القدماء تَمَهُّرَه في حياته ، فقال ابن سلّام يفرق بينَ فئتيْن من الشعراء (١) : « فكان مِن الشعراء مَنْ يَتَأَلَّــه في جاهليته ، ويَتَعَفَّف في شعره ، ولا يَستَبْهِر بالفواحش ، ولا يَتَهَكَّم في الهجاء ، ومنهم مَنْ كان يَتَعَهَّر ولا يُبقي على نفسه ، ولا يَتَسَتَّر ، منهم امرُؤُ القيس ومنهم الأعشى » .

فامرؤُ القيس والأعشى ، وَغيرُهما من الشعراء يُؤلِّفون فريقاً مُخالِفاً للأول في مذهبه ، فبينا الأولُ يَنحو نَحْوَ التَّدَيُّن والتَّعَفُّف اذا الثاني يُقارِف اللذات ، وَيرتكِب الفواحش ، فمذهبُ الأولِ هو التعفُّف ، ومذهب الثاني هو الاباحة .

ونلحظ في غزل الأعشى تأثيرَ بيئتيْن هما بيئة البادية ، وبيئــة العراق ولا سيما الحيرة ، وقد ظهر تأثيرُ البادية في الغزل ، وفي الوقوف على الأطلال ، والتعبيرِ عن عاطفة البين والشوق ، ووَصفِ المرأة .

فأمّا الوقوفُ على الأطلال فقليلٌ في شعر الأعشى ، ومنه قوله (٢) :

مَا بُكاءُ الكَبيــرِ بالأَطْلالِ وَسُؤالي فَهَلْ تَرُدُّ سُؤالِي
دِمْنَةٌ قَفْرَةٌ تَعَاوَرَها الصَّيْـ فُ بِريحيْنِ من صَباً وشَمَالِ

---

(١) طبقات الشعراء ص ٣٤ ــ ٣٥
(٢) الديوان ص ٣

فهو يستفهم : فِيمَ وقوفُ الرجلِ بالأطلال يَبْكِي وَيسْأل ، وهو يعلم أن الدِّمنة القَفْرة التي تعبث بها رياحُ الصيفِ لا تَرُدُّ السؤال .

والحَقُّ أنه لم يُعْنَ بوصف الأطلال ، فليس في ديوانه إلا قصائدُ مَعْدودات بدأها بالوقوف على الديار ، وَسببُ ذلك أنه طَـوَّفَ في البلاد ، فلم يُلازِمْ قبيلته في حَلِّها وتَرْحالها .

على أنه يقف بالديار . ويصفها في بيتين كما رأينا ، أو في بيت واحد كقوله (١) :

لِمَيْثَاءَ دارٌ قد تَعَفَّتْ طُلولُها عَفَتْها نَضِيضاتُ الصَّبَا فَمَسِيلُها

وأمّا التعبير عن عاطفة البين والشوق فضعيفٌ في غزله ، وسببه أن الأعشى لم يكن يُشجيه بُعْدُ المرأة ، فهي وسيلة من وسائل اللهو ، إذا فقد واحدة وجد غيرَها .

وأمّا وصفُ المرأة فحسي يَفيض بالشهوة ، ويُثير كَوامِنَها كقوله (٢) :

وَأَقْرَرْتُ عَيْني مِنَ الغانيا ت إمّا نِكاحاً وإمّا أُزَنْ
مِنْ كُلِّ بَيْضاءَ مَمْكُورَةٍ لها بَشَرٌ ناصِعٌ كاللَّبَنْ

فهو لا يَفرِق في لذته بين مُحَرَّم ومُباح ، ويُباشِر النساء بالزَّواج والزِّنا ، ويُؤثِر مَنْ كانت بيضاءَ ، مَفْتولةَ القوام ، ناصِعةَ الجِلْد كاللبن .

---

(١) الديوان ص ١٢٢

(٢) الديوان ص ١٥

ومن أظهر الأمثلة على غزله الفيَّاض بالشهوة، قوله في صاحبته قتيلة، فهو يدقِّق في وصف جسمها، ويتتبَّع ما أخفت ملابسها من مواضع الفتنة، ويتصوَّرها حين تقعد وتقوم، وتقبل وتدبر، وتلوِّح بيدها في دلال، وتتفضَّل في ثياب النوم، وتنبطح على الأرض (١):

صحا القلبُ من ذكرى قتيلةَ بعدما ... يكونُ لها مثلَ الأسيرِ المُكبَّلِ
لها قدمٌ ريَّا سباطٌ بنانُها ... قد اعتدلت في حسنِ خلقٍ مُبتَّلَ
وساقان مارَ اللحمُ مَوْراً عليهما ... إلى منتهى خلخالها المُتَصلْصِلِ
إذا التمستْ أُربيَّتاها تساندَتْ ... لها الكفُّ في رابٍ من الخلقِ مُفضِلِ
إلى هدفٍ فيه ارتفاعٌ ترى لهُ ... من الحُسْنِ ظِلاً فوقَ خلقٍ مُكمَّلِ
اذا انبطحتْ جافي عن الأرضِ جنبُها ... وخوَّى بها رابٍ كهامةِ جُنبُلِ
إذا ما علاها فارسٌ متبذِّلٌ ... فنِعْمَ فراشُ الفارسِ المُتبذِّلِ

فقدمها مسترسلة البنان، وقامتها معتدلة، تامَّة الخلق، حسنة التناسق، وساقاها ممتلئتان، يترجرج لحمها حتى موضع الخلخال الريَّان، وإذا التمس صاحبها أردافها ظل يصعد بيده في ساقيها حتى يبلغ هذا الكثيب الذي يلقي على خلقها المكمَّل ظلاً من حسن، ويمضي مع خياله في تصوير صاحبته، فهي إذا انبطحت على الأرض بجسمها المديد جفا خصرها الدقيق عن الفراش، وانحطت أردافها

(١) ديوان الأعشى الكبير. المطبعة النموذجية ص ٣٥١

الضخمة كأنها رأس القدح الخشبي ، وإذا علاها فارس مُتبذِّل كانت له فراشا حسنا ناعما .

فالشاعر قَصَر همَّه على وصف محاسن صاحبته ، ولم يصور شيئا من جمالها المعنوي ، فكان ماديا حسيا في غزله .

وقد وصف نفسه بأنه صاحب لذة في قوله (١) :

حَفِظَ النهارَ وباتَ عنها غافِلاً   فخَلَتْ لِصاحِبِ لَذَّةٍ وخلالها

وقد يعنى في غزله بوصف المرأةِ وتنعّمِها كقوله في هريرة (٢) :

غَرّاءُ فَرْعاءُ مَصْقولٌ عَوارِضُها   تَمْشي الهُوَيْنَى كما يَمْشي الوَجِي الوَحِلُ
كأنَّ مِشيَتَها مِنْ بَيْتِ جارتِها   مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ
تسْمعُ للحَلْي وسْواساً إذا انْصرفَتْ   كما اسْتَعانَ بِريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ
لَيْستْ كَمَنْ يَكْرهُ الجيرانُ طَلْعَتَها   ولا تَراها لِسِرِّ الجارِ تَخْتَتِلُ
يَكادُ يَصْرَعُها لَوْلا تَشَدُّدُها   إذا تَقُومُ إلى جاراتِها الكَسَلُ
إذا تقومُ يَضُوعُ المِسْكُ أَصْوِرَةً   والزَّنْبَقُ الوَرْدُ مِنْ أَرْدانِها شَمِلُ
ما رَوْضَةٌ من رِياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ   خَضْراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يُضاحِكُ الشمسَ منها كوكَبٌ شَرِقٌ   مُؤَزَّرٌ بِعَميمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ
يوماً بِأطيَبَ مِنْها نَشْرَ رائحةٍ   ولا بِأَحْسَنَ منها إذ دَنا الأُصُلُ

فالشاعر يصف هريرة ، فهي بيضاء ، واسعةُ الجبين ، طويلةُ

---

(١) الديوان ص ٢٣

(٢) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٥٥

الشعر ، نَقِيَّةُ الأسنان ، تمشي مُتَمَهِّلة ، وَتَتَمايل في مشيتها لسمنها ، ويُكَرِّر وصفَ مِشْيَتِها ، فهي تمشي مُتَبَاطِئة كما تَمُرُّ السحابة .

ويصف حَلْيَها من غير أنْ يَنسى حركتها ، فيجعل لِحَلْيِها صوتاً حينَ تمشي ، ويُشَبِّهه بصوت حَبِّ العِشْرِق اذا ضربَتْه الريح ، ويصف هذا الشجرَ بأنه زَجِل .

ويصور بعض خُلُقِها ، فجيرانها يُحِبّون لِقاءَها ، وهي لا تسترِق أخبارهم .

ثم يصفها بالسِّمَن والنعمةِ والترفِ وطيبِ الرائحة ، فهي اذا قامت تَضَوَّع منها المسك ، كأنما تَضَوَّع من عِدّة حِقاق ، وانتشرتْ رائحةُ زيتِ الياسمين مُنبعِثةً من أطراف أكمامِها ، فَشَمِلت المكان الذي هي فيه .

ولا يكتفي بما تقدّم من وصفها ، وإنما يَسوق صورة مُفَصَّلة لروضة مُعشِبة قامت في موضع من اليمامة ، وجادها مطر غزير ، فتَفَتَّح فيها زَهْر يُضاحِك الشمس ، ويَكنُفُه نبات تامُّ النُّمو ، وبعد أن يصف الروضة هذا الوصفَ ، يُفضّل صاحبته على الروضة ، فيجعلها أطيبَ منها رائحة ، وأجْملَ منها منظراً في الأصيل .

فالشاعر أقلّ من تصوير عاطفته ، وأكثر من وصف صاحبته ، فتذكر بياض لونها ، وطول شعرها ، ونقاء أسنانها ، وتَمَهُّلها في مِشيتها ، وصوت حَلْيِها ، وسِمَنها ، وترفها في عيشها ، وطيب رائحتها ، فغزله يقوم على الوصف الحسي .

والوصف غنيٌّ بالحياة والحركة والصوت واللون والرائحة ، فهريرة تمشي الهُوَيْنَى ، ومشيتُها كَمَرِّ السَّحاب ، وتمشي من بيت جارتها ، وإذا قامتْ تضوع منها المِسْك . والحركة في وصف ما تقـــدم هيِّنة ليِّنة لطيفة .

ونسمع ، في الوصف ، وَسْواس الحَلْي ، وزَجَل العِشْرِق ، ونشمّ رائحة المسك وزيت الياسمين .

ونرى بَيَاض هريرة ، ونَقَاء أسنانها ، وحُمْرة الزنبق ، وخُضْرة الروضة ، ونلمح صُفْرة الأصيل .

فالشاعر يَعرِض صاحبته في إطار الطبيعة يشتمل على السحـابة والريح والمشرق والروضة .

ووصفُ هريرة يَشِفُّ عن ظاهرة الغِنى ، فهي كَسول لِترفهـا وَتنعّمها وَفرْط غضارتها ، وهي تقتني الحُلِيَّ ، وَتتطَيَّب بالمسك وزيت الياسمين .

والألفاظ ملائمة للغزل ، والشاعر يُعنَى بالصفات ، فهريرةُ غرّاء فرعاءُ مصقولةُ العوارض ، والرجلُ وَحِل ، والعِشْرِق زَجِـــل ، والزنبقُ الوَرْدُ شَمِيل ، والروضة مُعْشِبة خضراء ، والمطر مُسْبِـــل هَطِل ، والكوكب شَرِق مُؤَزَّر بعميم النبت مُكْتَهِل .

ولكنه لا يتخلص في غزله من نزعته الحسية ، فهو يجد في المرأة مُتْعَة نفسه ، وَمحَطَّ شهوته كقوله في هريرة[1] :

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٥٥

نِعْمَ الضَّجيعُ غَداةَ الدَّجْنِ يَصْرَعُها لِلَذَّةِ المَرْءِ لا جافٍ ولا تَفِل

وَيشفي نفسَه الحَرَّى بالتمتع منها ، كقوله في قتيلة (١) :

يَشفِي غَليلَ النفسِ لاهٍ بها حَوْراءُ تُصبِي نظَرَ النَّاظِرِ

وقد يَبيتُ مُسهَّدا مُؤَرَّقا لأن محبوبته أخلفت ميعادَها ، ثم يتَماسك ، ويصور نفسه قويا على وَصْل المحبوبةِ وقطيعتها ، ويستبدل بها امرأة مِثلَها مَفتونةً بشبابها ، ويزورها ليلاً على حينِ غفلةٍ من زوجها ، فيقول (٢) :

أَجِدَّكَ لَمْ تَغْتَمِضْ ليلةً فترْقُدَها مع رُقَّادِها
تذَكَّرُ تيّا وأنَّى بها وقَدْ أخْلَفَتْ بعضَ ميعادِها
فَميطي تُميطي بِصُلْبِ الفُؤادِ وَصولِ حِبالٍ وَكنَّادِها
وَمِثْلِكِ مُعْجَبَةٍ بالشَّبابِ صاكَ العَبيرُ بأجْسادِها
تَسَدَّيْتُها عادَني ظُلْمَةٌ وَغفْلَةُ عَيْنٍ وإيقادِها
فَبِتُّ الخليفةَ مِنْ زَوْجِها وَسيِّدَ تيًّا ومُستَادِها

ولو كان عاشقاً حقاً لكان أرَقَّ وألْيَنَ في مخاطبة صاحبته ، واستعطافها ، واستنجازِها مَوْعِدَها ، ولكنه بدا فَظاً غليظَ القلْب .

فهو لا يَفرِق في لذته بين حَلال وحَرام ، فالمرأة لِمَنْ مَلَكها ،

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ١٣٩

(٢) المصدر نفسه ص ٦٩

ولا يَفوز بها إلا الجسور ، ومن أجْلِ هذا كان يَطيبُ له أن يُصوِّر المرأةَ متزوجة ، ويصور نفسَه غالباً على صاحبها فيقول [1] :

وَمصَابِ غادية كأنَّ تِجارَها ... نَشرَتْ عليه بُرُودَها ورِحالَها
قد بِتُّ رائدَها ، وشاةِ مُحاذِرٍ ... حَذَراً يقِلُّ بعينِه أغفالَها
فظَلِلْتُ أرْعاها وظَلَّ يَحُوطُها ... حتى دَنَوْتُ إذا الظلامُ دَنا لها
فرَمَيْتُ غَفْلَةَ عينِه عن شاتِه ... فأصَبْتُ حَبَّةَ قلبِه وطِحالَها
حَفِظَ النَّهارَ وباتَ عنها غافِلاً ... فخَلَتْ لصاحبِ لذَّةٍ وخَلا لها

فهو يصور رجلا يَغار على صاحبته ، ويحوطها بعينه خوفاً وحذرا ، ويصور نفسه ينتظر غَفْلة الرجل عنها ليخلُوَ إليها ، ويَقضيَ وَطَرَه منها .

وقد يصور المرأة مُمَنَّعَةً لا يَصِل إليها إلاَّ بعدَ لأْيٍ [2] :

ولَقَدْ أنالُ الوَصْلَ في مُتَمَنِّعٍ ... صَعْبٍ بناه الأوَّلونَ مَصادِ

غير أنه يعبر أحيانا عن عاطفة البين ، ويغلو في تصويرها كقوله [3] :

أأزْمَعْتَ مِنْ آلِ لَيْلى ابْتِكارا ... وشَطَّتْ على ذي هَوىً أنْ تَزارا
وبانَتْ بها غَرَباتُ النَّوَى ... وبُدِّلْتُ شَوْقاً بها وادِّكارا
ففاضَتْ دُموعي كفَيْضِ الغُرُو ... بِ إمّا وَكيفاً وإمّا انْحِدارا
كما أسْلَمَ السِّلْكُ مِنْ نَظْمِه ... لآلِئَ مُنْحَدِراتٍ صِغارا

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٢٧
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٩
(٣) المصدر نفسه ص ٤٥

فهو يسأل نفسه : أهو مُزْمِعٌ الرحيلَ عن آل ليلى في البُكور ، وكأنه لا يصدق أنه مُفارِقُها ، ثم يصور نفسه بعيداً عنها كلَّ البعد ، وأنه لا يستطيع زيارتها ، ولا يكتفي بالتعبير عن عاطفة البين ، وإنما يبكي ، ويبالغ في وصف بكائه ، فيجعل دموعَه تفيض فيضَ الدِّلاء ، ويصورها صورة ثانية ، فهي حَبَّاتُ لُؤْلُؤٍ تَبَدَّدَتْ ، وكانت منظومةً في سِلْك .

والحزنُ على فراق الأحبةِ يَبكي من غيرِ أن يُعنَى بوصف دموعه ، أمَّا الغُلُوُّ في وصف الدموع فيطبع العاطفةَ بِطابَع التكلف .

واذا كان النسيب الجاهليُّ يمتاز بالسَّذاجة ، والبساطةِ في التعبير ، والبُعْدِ عن التكلف ، فان الشاعر جاوز المألوفَ في هذا الفن حتى وقع في التكلف والاحالة ، كما في قوله يُشَبِّه صَدْع قلبه من أثرِ الفراق بِصَدْع الزجاجة (١) :

فَبانَتْ وفي الصَّدْرِ صَدْعٌ لها كَصَدْعِ الزُّجاجَةِ ما يَلْتَئِمْ

وقوله في قدرة صاحبته على إحياء الميت (٢) :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها عاشَ ولَمْ يُنْقَلْ إلى قابِرِ

وهو من المبالغات المقوتة ، وقد أنكر القُدامى ما في البيت من غلو ، فقالوا : إنّ هذا أكْذَبُ بيت قالته العرب .

---

(١) الديوان ص ٢٨

(٢) الديوان ص ١٠٥

وقد استمدّ الأعشى صُورَه من بيئتيْن هما البيئةُ العربية البدوية والبيئةُ العراقية المتحضرة .

فأمّا البيئةُ الأولى فيظهر تأثيرُها في الأبيات التالية :

فهو يُشَبّه المرأة بظبية تعطو ثمر الكَبَاث في قوله (١) :

ظَبْيَةٌ مِنْ ظِباءِ وَجْرَةَ أَدْماءَ تَسَفُّ الكَبَاثَ تَحْتَ الهَدالِ

ويُشبّهها بالمُهْرة الضّامِرِ في قوله (٢) :

عَهْدِي بِها في الحَيِّ قدْ سُرْبِلَتْ هَيْفَاءُ مِثْلُ المُهْرَةِ الضّامِرِ

ويُشبّهها بالمهاة في قوله (٣) :

فَبَانَ بحَسْنَاءَ بَرّاقَةٍ علَى أنّ في الطَّرْفِ منها فُتُورا
مُبَتّلَةِ الخَلْقِ مِثْلِ المَهَاةِ لَمْ تَرَ شَمْساً ولا زَمْهَرِيرا

ويُشبّه عينيْها بعَيْنَيْ الرّئم ، وفَمَها بأُقْحُوان (٤) :

مُبتّلَةٌ هَيْفَاءُ رَوْدٌ شَبَابُها لها مُقْلَتَا رِئْمٍ وَأَسْوَدُ فاحِمُ
وَتَضْحكُ عنْ غُرِّ الثّنايا كأنّهُ ذُرَى أُقْحُوانٍ نَبْتُهُ مُتَنَاعِمُ

فالشاعر استمد صوره من البيئة العربية البدوية .

وأمّا البيئةُ الثانية فيظهر تأثيرُها في الأبيات الآتية :

---

(١) الديوان ص ٥
(٢) الديوان ص ١٠٤
(٣) الديوان ص ٦٨
(٤) الديوان ص ٥٦

فهو يستعير طعمَ الخمر ليصور طيب ريقها (1) :

تعاطي الضجيعَ إذا أقبلتْ	بُعَيْدَ الرقادِ وعندَ الوَسَنْ
صليفيَّةً طيِّباً طعمُها	لها زَبَدٌ بينَ كوبٍ ودَنّْ

ويشبه المرأة بين أترابها بدُمْية في محراب الراهب ، وبالبيْضة المكنونة ، وبالدُرَّة (2) :

وقد أراها وَسْطَ أترابِها	في الحَيِّ ذي البَهْجَةِ والسّامِرِ
كدُمْيَةٍ صوّر محرابها	بمُذْهَبٍ في مَرْمَرٍ مائِرِ
أو بيْضَةٍ في الدِّعْص مكْنونةٍ	أوْ دُرَّةٍ شيفتْ لدَى تاجِرِ

وهي صور ترتد إلى بيئة الترف والنعيم في الحيرة ، وفي غيرها من بيئات العراق .

فالغزل من مقوِّمات شخصية الشاعر ، فهو صاحبُ لذة يرى المرأة وسيلةً من وسائل اللهو ، ويجد فيها جسداً يُرَوّي ظمأه ، ويطفيء شهوته ، وهو ينهج في تصوير لذته نهجَ امرىءِ القيس وغيره من شعراء الاباحة .

ويبدو غزله على وصفِ المرأة وتصوير شعوره نحوها ، ويتسم بالرِّقة والخنوثة والخلاعة ، وهي صفات استمدها من بيئة العراق ولا سيما الحيرة .

---

(1) الديوان ص ١٥

(2) الديوان ص ١٠٤

وقد يصور المرأة المُنَعَّمَة المترفة ، ويَتَكَلَّف في التعبير عن عاطفة البين حتى يقعَ في الاحالة .

فغزله مادي حسي يقوم على وصف جسدِ المرأة والتَّمَتّعِ منها .

٢ - خمره :

شرب الجاهليون الخمر ، وَأَلَمّوا بوصفها ، فوصفوا الخمر وأقداحَها وآنيتَها ، وعُنِي بعضُهم بوصفها كالأعشى وَعدِيِّ بنِ زَيْد ، وحسان ابن ثابت ، وَعلقَمَةَ بنِ عَبْدة .

ولم يكن وصف الخمر مقصوراً لذاته عند الشعراء ، وإنما تناولوها في سياق غزلهم ، فشبهوا رُضاب صواحبهم بالخمر ، أو وصفوها في مَعرِض الفخر .

والحقّ أن شُرْب الخمر كان عند الجاهليين مَظْهراً من مظاهر السيادة والكرم ، فالعربي إذا شَرِب أو طَرِب أشرك صَحْبه في شُرْبه وَطرَبه ، وتمدّح بهذا وافتخر ، فطرفة يُغرِي صاحبه بالشراب ، فيقول (١) :

وَإنْ تَبْغِني في حَلْقَةِ القَومِ تَلْقَنِي وإنْ تَلْتَمِسْني في الحَوانيتِ تَصْطَدِ
مَتى تَأْتِنِي أَصْبَحْكَ كأساً رَوِيَّةً وإنْ كنتَ عنها غانياً فاغْنَ وَازْدَدِ

ويقول في وصف نَداماه ، وفي وصف القَيْنة المغنية (٢) :

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . الأنباري . دار المعارف ١٩٦٣ ص ١٨٦ - ١٨٧

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٨ - ١٩٠

نَدامايَ بِيضٌ كالنُّجومِ وقَيْنَةٌ ... تَروحُ إلينا بينَ بُرْدٍ ومُجْسَدِ
رَحيبٌ قِطابُ الجَيْبِ منها رَفيقةٌ ... بِجَسّ النَّدامى بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ
إذا نحنُ قلْنا أسْمِعِينا انبَرَتْ لنا ... على رِسْلِها مَطْروفَةً لم تَشَدَّدِ

فهو يشرب الخمر ، ويُشرِكُ الناس في شربها ، فيدعو نَدامَاه إلى مجلس شراب تغنيهم فيه القينة ، فشُرْبُ الخمر ليس جافاً عِندَه ، وإنما هو وسيلةٌ إلى الاستمتاع بلذة أخرى هي سماعُ الغناء .

ويقول في إنفاقه المالَ على الشراب وإنكار قومه له (١) :

وما زالَ تَشْرابي الخُمورَ ولَذَّتي ... وبَيْعي وإنْفاقي طَريفي ومُتْلَدي
إلى أنْ تَحامَتْني العَشيرةُ كُلُّها ... وأُفْرِدْتُ إفْرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

ويجعل الخمرَ والنجدةَ والمرأةَ لَذَّاتِه في الحياة (٢) :

فلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عيشَةِ الفتَى ... وجَدِّكَ لم أحْفِلْ متَى قامَ عُوَّدي
فَمِنْهُنَّ سَبْقُ العاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ
وكَرِّي إذا نادَى المُضافُ مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الغَضَا نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ
وتَقصيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعجِبٌ ... بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِباءِ المُعَمَّدِ

فهو يفخر بشرب الخمر ، ويدعو إلى شربها ، ويُضيف إلى نشوة السُّكْر نشوةَ الغناء ، ويُنفِق المال حتى تُنكِرَه القبيلة ، ويجعل الخمرَ إحدى لذاتٍ ثلاثٍ يَتعاطاها في حياته ، ولكنه لا يصف الخمرَ وأدواتِها .

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . الأنباري . دار المعارف ١٩٦٣ ص ٩١

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٤ ـ ١٩٦

وعنترة يفتخر بشرب الخمر فيقول [1] :

وَلقدْ شَرِبْتُ مِنَ المُدامةِ بعدَما ... رَكَدَ الهواجِرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ
بِزُجاجةٍ صَفْراءَ ذاتِ أَسِرَّةٍ ... قُرِنَتْ بأزْهرَ في الشِّمالِ مُفدَّمِ
فإذا شَرِبْتُ فإنَّني مُسْتَهلِكٌ ... مالي وعِرْضي وافِرٌ لمْ يُكْلَمِ
وإذا صَحَوْتُ فما أُقَصِّرُ عنْ نَدًى ... وكَما عَلِمْتِ شَمائِلي وتَكَرُّمي

فهو يشرب الخمر عندَ ركودِ الهواجرِ دلالةً على نعمته ، ويشتري الخمر بماله ، ثم يصف بعضَ أدواتِ الشراب من كأس وإبريق ، فالكأس صفراءُ ذاتُ طرائقَ وخطوط ، والابريقُ مِنْ فضة أو من رَصاص ، وفمه مشدود بِخِرْقة ، وهو يُنفِق ماله في سُكْره كما ينفقه في صَحْوه ، فكرمُه طبْعٌ أصيل فيه ، وليس خُلُقاً مُتكَلَّفاً ، وهو يفعلُ ما يفعلُ حِفاظاً على عِرْضه .

ولبيد يصور لهوه في السِّلْمِ ، فيقول مفتخراً مخاطباً صاحبته [2] :

بلْ أنتِ لا تدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلةٍ ... طَلْقٍ لذيذٍ لهوُها ونِدامُها
قدْ بِتُّ سامِرَها ، وغايةَ تاجرٍ ... وافَيْتُ إذْ رُفِعَتْ وعَزَّ مُدامُها
أُغْلِي السِّباءَ بكلِّ أدْكَنَ عاتِقٍ ... أو جَوْنةٍ قُدِحَتْ وفُضَّ خِتامُها
باكَرْتُ حاجتَها الدَّجاجَ بِسُحْرةٍ ... لأُعَلَّ منها حينَ هبَّ نِيامُها
وغَداةَ ريحٍ قدْ كشَفْتُ وقِرَّةٍ ... إذْ أصبحتْ بِيَدِ الشِّمالِ زِمامُها
بِصَبوحِ صافيةٍ وجَذْبِ كَرِينةٍ ... بِمُوَتَّرٍ تأْتالُهُ إبْهامُها

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . الأنباري . دار المعارف ١٩٦٣ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩

(٢) المصدر نفسه ص ٥٧٤ ـ ٥٧٨

فهو يخاطب نوار مفتخراً بلهوه وكرمه، ويسوق الفخر ليلفت نظرها إليه كما فعل عنترة في معلقته.

ولهوه ينحصر في شرب الخمر، ومسامرة الندامى، وسماع الغناء، فهو يقصد الخمار حين يرفع رايته، ويغلي ثمن الخمر، ويشربها معتقة في زق أغبر، أو في خابية سوداء مفضوضة الختام، وقد يعل منها عند صياح الديكة، ويقظة النوام، ثم ينحرف إلى وصف كرمه في يوم ريح شديد البرد، ثم يعود إلى وصف لهوه من شرب الصبوح، وسماع المغنية تضرب بإبهامها على الأوتار، فشرب الخمرة عنده ليس جافاً، وإنما هو مصحوب بالغناء والضرب على الأوتار.

وعدي بن زيد يشرب الصبوح من يد قينة فيقول (١):

ثمّ ثاروا إلى الصّبوحِ فقامتْ ... قينةٌ في يمينها إبريقُ
قدّمتْه على عقارٍ كعيْنِ الدّيـ ... ـك صفّى سلافَها الرّاووقُ
مُرّةٌ قبْلَ مزْجِها فإذا ما ... مُزِجتْ لذَّ طعْمُها منْ يذوقُ
وطفتْ فوقَها فقاقيعُ كاليا ... قوتِ حُمْرٌ يَزِينُها التّصْفيقُ

فهو يصف صفاء الخمر، وجودتها، ويذكر بعض أدواتها من إبريق وراووق، ويصف طعمها قبل مزجها وبعده، وحبابها الطافي عند نقلها من إناء إلى إناء.

فالشعراء وصفوا الخمر، وبعض أدواتها من كأس وإبريق وراووق،

---

(١) شعراء النصرانية قبل الاسلام. ص ٤٦٧

ووصفوا الدِّنان التي تُحفَظ فيها ، والقيْنة المغنية ، ولكنهم لم يُدقّقوا الوصف ، وكانوا يقصدون إلى الفخر والتمدُّح بكرمهم وصفاتهم ، وقد يكون الباعثَ على الفخر تغزُّلُ الشاعر بصاحبته .

والحقُّ أن نغمة الخمر طغَتْ على فنون الشعر الجاهلي ، فالشعراء كانوا يتغنَّون بالخمر حين يتمدَّحون بفتُوَّتهم ومظاهرها من إنفاق المال ، وتعاطي اللذات ، وقِرَى الضَّيْف ، ونجْدةِ القبيلة .

وامتاز الأعشى من شعراءِ الجاهلية بما أشاع من حياة في خمْريّاته ، وبما بثَّ فيها من عاطفته الشخصية ، فقد فُتِنَ بالخمرة ، ووصفها في أغلب قصائده حتى غدتْ أداةً من أدوات فنه .

ولم يقُلْ في الخمر وحْدَها ، وإنما وصف كل ما يتصل بها ، وأتى في هذا بمعانٍ جديدة وصُوَرٍ مبتكرة حتى عدَّه الرواة والنقاد شاعرَ الخمر في الجاهلية .

وقد قامت شهرته في الخمر على أساسيْن ، أولُهما أنه انفرد بوصف الخمر مِنْ بيْنِ الشعراء الجاهليين ، وثانيهما أنه أثَّر فيمنْ جاء بعدَه من شعراء الخمر ، والرواة يردِّدون معنى أبي نواس في قوله (١) :

دَعْ عنكَ لَوْمي فانَّ اللَّوْمَ إغْراءُ ودَاوِني بالّتي كانتْ هِيَ الداءُ

---

(١) ديوان أبي نواس . تحقيق عبد المجيد الغزالي . دار الكتاب العربي . بيروت ص ٦

إلى معنى الأعشى في قوله[1] :

وَكأسٍ شَرِبْتُ على لَذَّةٍ وأُخرَى تداوَيْتُ مِنها بِها

ويؤيدون بهذا القول دَعْواهم ، ومِنْ هُنا نشأ الرأيُ القائل بأن الأعشى شاعرُ الخمر في الجاهلية ، والأخطلَ شاعرُها في الاسلام ، وأبا نواس شاعرُها في العصر العباسي .

واجتمعتْ للأعشى أسبابٌ لتجويد هذا الفن ، فقد عاش في اليمامة ، وهي قريبةٌ من العراق ، وتَرَدَّد إلى الحيرة التي تأثرتْ بالحضارة المادية الفارسية ، وقام فيها شعراء ، مِن مِثْل عَديّ بنِ زيد ، يُصوِّرون ما شاع من فنون اللهو ، وقد اختلف الأعشى إلى مجالس الشراب والغناء ، فشَرِب الخمر ، واستمع للقيان وتَوقيعِهِن الغناءَ على الصَّنج والعُود والمِزْهَر ، وتمتَّع من الحِسان ، ولم يكن يكتفي بذلك ، وإنما كان يتزَوَّد من الخمر ، ويَرجِع إلى مَنفوحة ، ومعه قينة لِتُغَنِّيَه في مجالسه ، وكان الفتيان يَقصِدونه ، فيطعَمون عنده ، ويشربون ، ويسمعون ، وقد يَتقامرون كأنهم في مَلْهَى عَصْرِيّ لا في بيْت . وذلك في قوله[2] :

فقدْ أُخْرِجُ الكاعِبَ المُسْتَرا ةَ مِنْ خِدْرِها وأُشيِعُ القِمارَا

وربما كانت حياته الخاصّة أساساً لما رُوِي عنه من أخبار ، كالخَبَر الذي يصور فتيانَ منفوحةَ يتنادمون عِندَ قبره ، ويَصُبُّون

---

(١) الديوان ص ١٢١
(٢) الديوان ص ٣٥

فَضَلاتِ أقداحهم عليه ، أو يجعلون قبرَه مجلسَ رجلٍ منهم ، فاذا صار إليه القدح صبوه عليه .

وإلى ذلك تحلّل الأعشى من قيود القبيلة بسبب أسفاره ، وتنقّل متكسّباً بشعره ، فمكّنه هذا من التفرّغ لنفسه ولذّاتها .

وقد صور شعرُه حياته تصويراً صادقا ، فهو يشرب الرّاح في المُقام والرّحيل ، وفي الغداة والعشيّ ، وفي الليل قبلَ صياح الديك ، وذلك في قوله (١) :

فقدْ أشرَبُ الرّاحَ قدْ تعلَمِيـ ... ـنَ يومَ المُقامِ ويومَ الظَّعَنْ

وقوله (٢) :

لنا من ضُحاها خُبثُ نفسٍ وكأْبَةٌ ... وذِكرَى هُمومٍ ما تغِبُّ أذاتُها
وعِندَ العَشيِّ طيبُ نفسٍ ولَذَّةٌ ... ومالٌ كثيرٌ غُدوَةً نشَوَاتُها

وقوله (٣) :

فقُمْنا ولمَّا يَصِحْ ديكُنـا ... إلى جَوْنَةٍ عنـدَ حدَّادِهـا

ولا يكتفي بشُرب الخمر وتذوّقها ، وإنما يُشرك بقيّة حواسّه في التمتع منها ، فيصف نوعها ، ولونها ، ورائحتها ، وطعمها ، وأثرها في الشاربين ، وقد يذكر مواضعَ صُنعها ، وأمكنةَ شُربها ، وذلك ليُرَوّي نفسه من جهة ، ويُرضيَ حاسته الفنية من جهة ثانية .

---

(١) الديوان ص ١٤
(٢) الديوان ص ٦١
(٣) الديوان ص ٥١

لقد وصف الشاعر لون الخمر ، فشبهها بدم الذبيح (١) :

وَمُسَبِيئةٍ مِمَّا تُعَتِّقُ بابِلُ ... كَدَمِ الذَّبيحِ سَلَبْتُها جِرْيالَها

فالخمر مصنوعة معتقة في بابل ، وهي حمراءُ كالدم .

وشبّه الخمر بنور الذبح (٢) :

وَشَمولٍ تَحسِبُ العَيْنُ إذا ... صُفِّقَتْ وُرْدَتَها نَوْرَ الذُّبَحْ

فالخمر باردة بلون الوَرْد ، وإذا صُفِّيَتْ كان لونها كلون زهرِ الذُّبَحِ الأحمرِ الزاهي .

وشبّه الخمر بالزعفران والعَنْدَم (٣) :

وكأسٍ كعينِ الدِّيكِ باكَرْتُ حَدَّها ... بِفِتْيانِ صِدْقٍ والنَّواقيسُ تُضْرَبُ

سُلافٍ كأنَّ الزَّعْفرانَ وَعَنْدَما ... يُصَفَّقُ في ناجُودِها ثُمَّ تُقْطَبُ

فالخمر صافية كعين الديك ، وهي من خالص الخمر ، وإذا رُوِّقَتْ في إنائها ، وَمُزِجَتْ ، بدتْ كالزعفران الأصفر المخلوطِ بِصِبغِ العَنْدَمِ الأحمر .

ويصف تَبَدُّلَ لونِ الخمر (٤) :

---

(١) الديوان ص ٢٣

(٢) الديوان ص ١٦٢

(٣) الديوان ص ١٣٧

(٤) الديوان ص ٥٢

فَقامَ فَصَبَّ لنا قَهْـوَةً تُسكِّنُنا بعدَ إرْعادِها
كُمَيْتاً تَكَشَّفُ عَنْ حُمْرَةٍ إذا صَرَّحَتْ بعدَ إزْبادِها
فجـالَ علينا بإبريقِـهِ مُخَضَّبُ كَفٍّ بِفِرْصادِها

فالخمر قوية تُسكِّن الشرْب بعد سَوْرتها في القدح ، وفيها سواد ينجلي عن حُمْرة ، ولكنَّ حمرتها قانية ، فهي تُخَضِّب كفَّ الساقي الذي يطوف عليهم بإبريقه ، وتُشاكِل النشوت في حُمرته .

وَيَفْتَنُّ في وصف صفاء الخمر ، فيقول (1) :

وَصَهْباءَ صِرْفٍ كَلَوْنِ الفُصوصْ سَريعٍ إلى الشَّرْبِ أَكْسالُها
تُريكَ القَذَى وهْيَ مِنْ دُونِهِ إذا ما تُصَفَّقُ جِرْيالُها

فهي خَمْر صِرْف ، تبدو كَحَدَقِ العين في صفائها ، وتُسرِع نشوتُها وَفَتْرَتُها إلى الشاربين ، وإذا صُفِّيَتْ في الآنيـة راقتْ حُمْرَتُها ، فشَفَّتْ عمَّا فيها من قَذَى .

ويصف رائحتها بقوله (2) :

مِثْلَ ذَكْيِ المِسْكِ ذَاكٍ رِيحُها صَبَّها السَّاقي إذا قِيلَ تَوَحّْ

فريحُها تفوح كرائحة المسك ، والساقي يصبها مُسرِعاً مُستجيباً لاستعجال الشاربين .

وقوله (3) :

---

(1) الديوان ص ١١٧
(2) الديوان ص ١٦٢
(3) الديوان ص ١٣٥

وَأَدْكَنَ عاتِقٍ جَحِلٍ سِبَحْلٍ   صَبَحْتُ بِراحِهِ شَرْباً كِراما
مِنَ اللاتي حُمِلْنَ على الرَّوايا   كَرِيحِ المِسْكِ تَسْتَلُّ الزُّكاما

فهو يَصبَحُ الشَّرْبَ من دَنٍّ أسودَ ضَخْمٍ عتيق ، والخمرُ نفيسةٌ حُمِلَتْ من مصانعها ، وفاحتْ رائحتُها كالمسك ، فاستلَّتِ الزُّكام .

وقد أفاد الأخطل من هذا المعنى الأخير فقال (١) :

وإذا تَعاوَرَتِ الأكُفُّ زُجاجَها   نَفَحَتْ فنالَ رِياحَها المَزْكومُ

فخمرُ الأخطلِ تَنال المَزْكوم ، وخمرُ الأعشى تَستَلُّ زُكامَه .

ويصف طَعْمَها بالطِّيب في قوله (٢) :

تُعاطِي الضَّجيعَ إذا أقْبلَتْ   بُعَيْدَ الرُّقادِ وَعِنْدَ الوَسَنْ
صَلِيفِيَّةً طَيِّباً طَعْمُهـا   لها زَبَدٌ بَيْنَ كُوبٍ ودَنّ

فيشبه رُضاب صاحبته بالخمر ، ويصف هذه بأنها مُعتَّقة ، طيبةُ المَذاق ، تُزبِد عند أخْذِها من الدَّنِّ وَصبِّها في الكوب .

وَيصِف طَعْمَها بالمَزازة في قوله (٣) :

نازَعْتُهمْ قُضُبَ الرَّيْحانِ مُتَّكِئاً   وَقَهْوَةً مُزَّةً راووقُها خَضِلُ

ويكرر هذه الصفةَ في قوله (٤) :

تَمَزَّزْتُها في بَنِـي قـابيا   وَكُنْتُ على العِلْمِ مُخْتارَهـا

---

(١) ديوان الأخطل . المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٨٩١ ص ٨٥
(٢) الديوان ص ١٥
(٣) الديوان ص ٤٥
(٤) الديوان ص ٢١٤

فهو يختارُها اختيارَ عليم ، ويَتمَزَّزُها مع الشاربين .

ويصور أثرها في الشاربين ، وما تُوَلِّد من نشوة ، فيقول (١) :

فَقَامَ فَصَبَّ لنا قَهْوةً | تُسَكِّنُنا بعدَ إرْعادِها
فَرُحْنا تُنَعِّمُنا نَشْوَةٌ | تَجورُ بنا بعدَ إقصادِها

فالخمرُ تَتَمَشَّى في مَفاصِل الشَّرْب ، فيرتعدون ، ثم يستسلمون لنشوتها ، فيسكنون ، وتَستَخِفُّهم هذه النشوة ، فيُجاوِزون ما كانوا فيه من قَصْد واعتدال .

وَيعرِض صُوَراً للسُّكارى في قوله (٢) :

فتَرى الشَّرْبَ نَشاوَى كُلُّهمْ | مِثْلَ ما مُدَّتْ نِصاحاتُ الرُّبَحْ
بيْنَ مَغْلوبٍ كريمٍ خَدُّهُ | وَخَذولِ الرِّجْلِ من غيْرِ كَسَحْ

فالشَّرْب نَشاوى مُتَمَدِّدون على الأرض ، كأنهم الحبال المنصوبة للصيد ، وهم بينَ مَغلوبٍ على أمره قد صَرَعتْه الخمر ، وبين مَخذولِ الرجل كسيح ، وهي صُوَرٌ تمثل السُّكارى تمثيلا واقعيا .

وقد يُجمِل وصفَها في أبيات مَعدوداتٍ كما في قوله (٣) :

وَصَهْباءَ صِرْفٍ كَلَوْنِ الفُصو | صِ باكَرْتُ في الصُّبْحِ سَوّارَها
فَطَوْراً تَميلُ بنا مُرَّةً | وطوراً تُعالِجُ إمْرارَها
تَكادُ تُنَشِّي ولَمّا تُذَقْ | وتَغْشَى المَفاصِلَ إفْتارُها

---

(١) الديوان ص ٥٢ - ٥٣
(٢) الديوان ص ١٦٣
(٣) الديوان ص ٢١٤

تدبُّ لها فترةٌ في العظامِ وتغشي الذؤابةَ فوّارُها
تمزّزْتها في بني قابِسا وكنتُ على العلمِ مختارَها

فالخمر صافية صفاءَ حدق العين، ولها سَوْرة، وهي مُرّة، وهم يشربونها فتغلبهم، ثم يعالجون مرارتها، فيمزجونها بالماء، ورائحتها تُسْكِر قبلَ مذاقها، ويغشى المفاصلَ منها لِينٌ وفتور، وهي تدبُّ في العظام فتُخدّرها، وتبلغُ الرأس فيدور، وقد تمزّزها الشاعر مع صحبه، واختارها اختيارَ عليمٍ بها.

فالشاعر وصف لون الخمر ونوعها، وطعمها، ومزاجها، ورائحتها، وصوّر أثرَها في الشَّرْب.

وقد ابتدع في خمرياته أسلوبا قصصيّاً جرى عليه المتأخرون، ومثالُه قولُه (١):

فقُمْنا ولمّا يصِحْ ديكُنا إلى جَوْنةٍ عند حدّادِها
تنخّلُها مِنْ بكار القِطافْ أُزَيْرِقُ آمِنُ إكسادِها
فقلنا له هذه هاتِها بأدماءَ في حَبْلِ مُقْتادِها
فقالَ تزيدونني تِسْعةً وليستْ بعدلٍ لأندادِها
فقلتُ لِمنْصَفِنا أعطِهِ فلمّا رأى حضرَ شُهّادِها
أضاءَ مِظلَّته بالسِّرا جِ والليلُ غامرُ جُدّادِها
دراهمُنا كلُّها جيّدٌ فلا تحبسنّا بتنقادِها

(١) ديوان الأعشى الكبير. المطبعة النموذجية ص ٦٩ — ٧١

فهو يَقُصُّ خبر صَحْبِه في السَّحَر حين طرقوا الخمَّار يبغون الشراب ، والخمّار أزرق العينَيْن ، وقد حَفِظ الخمرة في خابيةٍ سوداءَ مَطْلِيَّةٍ بالقار ، وتخيَّرها من باكورةِ العِنَب المعصور ، وأمِن كَسَادَها لِجَوْدتها ، وينظر إليها الأعشى ، فيُؤْثِرُها على غيرها ، ويشتريها بناقة بيضاءَ في حَبْل عبدٍ يقودها ، ويُغلِي الخمّار ثمنَ الخمر حين أحسَّ حِرْص الصَّحْب عليها ، ويُطالبهم بتسعةِ دَراهِمَ زيادةً على الناقة ، فيسألُ الأعشى عبدَه أن يُعطِيَ الخمّارَ ما يريد ، ولمّا رأى الخمّار الخادمَ يُخرِج المال ، أشْعَلَ السِّراج ، فأضاء الخَيْمة وُهدْابها التي غمرها الظلام ، ثم أخذ يَنْقُد الدراهم ، فصاح به الأعشى مُتَعَجِّلاً صبَّ الخمر ، وعندئذ قام فصب الخمر ، وهنا يَنتقِل الأعشى إلى وصفها .

فالشاعر وصف الخمّار ، فصوَّر زُرقةَ عينيه ، وحِرْصَه على خمره ، ومُساوَمَتَه على ثمنها ، ونَقْدَه للدراهم ، كما صور خيْمتَه وُهدْابَها ، وسِراجَه الذى بَدَّد الظلام .

ووصف الخابية التي حُفِظَتْ فيها الخمر ، فهي سوداءُ ضَخْمة مَطْلِيَّة بالقار ، وصوّر أدواتِ الشراب من إبريق وكأس ، ووصف الخمر بأنها عُصِرَتْ من بِكار القِطاف .

وصوَّر سَخاءَه بالمال لشراء الخمر ، فقد دفع ناقته ، وزاد عليها تِسعةَ دراهم ثمناً للخمر . وصور إقبال الصَّحْب عليها ، فكأنهم يَغتصِبونها من دهرهم .

فالقصة وقعتْ في زمان ومكان ، وأشخاصُها هم الخمّار ، والشاعر ،

وَصحبُه ، وخادمُ الناقة ، وإذا كانت زُرْقةُ عينِ الحمار ، ونقدُه للدراهم ، وخمره ، توحي بجوٍ أعجمي ، فان الخيمةَ والناقةَ والشاعرَ وصحبَه وخادمَه توحي بجوٍ عربي بدوي .

وأجاد الأعشى وصفَ مجالسِ الشراب ، وتفوّق في هذا المجالِ على الشعراء الجاهليين ، فقال [1] :

وقدْ غدوْتُ إلى الحانوتِ يتبعُني ... شاوٍ مِشلٌ شَلولٌ شُلشُلٌ شَوِلُ
في فتيةٍ كسيُوفِ الهِنْدِ قدْ علِموا ... أنْ ليْسَ يدْفعُ عنْ ذي الحيلةِ الحِيَلُ
نازعْتُهُمْ قضُبَ الرَّيْحانِ مُتّكِئاً ... وقهْوةً مُزَّةً راوُوقُها خَضِلُ
لا يسْتَفيقونَ منها وَهْيَ راهِنةٌ ... إلاّ بِهاتِ وإنْ علّوا وإنْ نَهِلوا
يسْعَى بها ذو زُجاجاتٍ له نُطَفٌ ... مُقلَّصٌ أسْفلَ السِّرْبالِ مُعْتَمِلُ
ومُسْتَجيبٍ تخالُ الصَّنْجَ يسْمَعُهُ ... إذا تُرَجِّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ
مِنْ كُلِّ ذلكَ يومٌ قدْ لهَوْتُ بِهِ ... وفي التَّجارِبِ طولُ اللَّهْوِ والغَزَلُ
والسَّاحِباتُ ذُيُولَ الخَزِّ آونَةً ... والرَّافِلاتُ على أعجازِها العِجَلُ

فالمجلس يُعقَد في الحانوت ، ويَفِد عليه الشاعر في الغَداة ، ومعه غلام خفيف نشيط ، وفتيةٌ أشِدّاءُ على الدهر ، قد أحسّوا أن الموت مُدرِكُهم ، فهم ينتزعون منه المُتَع انتزاعا ، ويجلسون متكئين على الأرائك ، متجاذِبين قُضُب الريحان ، ويطوف عليهم الساقي بالخمر ، مُقرَّطَ الأذن بلؤلؤة ، مُشمِّراً أسفلَ قميصه ، فيشربون وينامون من أثر السُّكْر ، ثم يصحون ، ويُعاوِدون الشراب ، ويستمعون

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٥٩

فيما بينَ ذلك للعود تُوَقِّعُ عليه القَيْنة الغناء ، ويُجاوِب العودُ رنينَ الصَّنج بنغمه ، ويَموج المَجْلِس بنساء ضِخام يَجْرُرْنَ ذيُول الخمر ، ويَتَبَخْتَرْن في مِشْيتهن ، وكأنَّ على أعجازِهنَّ قِرَباً امتلأتْ ماء ، فارتَجَّتْ بما فيها .

فالغناء مُصاحِب للشراب ، وآلاتُ الطرب تُصاحِب الغناء ، والعود والصنج يَتَجاوبان ، وَجوْقة الغناء تتحرك على رَنّة العود والصنج ، والمَجلس مُزَيَّن بالريحان ، والخمرُ مُرّة ، تُصَفَّى في رَاووق ، والساقي مُقرَّطُ الأذن ، يَسقِي الخمرَ بزجاجات معينة ، والشَّرْبُ سُكارَى لا يَصحون من سَكْرتِهم حتى يُعاوِدوا الشرب .

فالشاعر لا يَضِنُّ على الخمر بماله في مُختلِف أحواله ، ويشتريها مهما غالَى الخمّار في ثمنها ، ويشربها ليلاً في خِباء كبير على ضوءِ السِّراج ، أو في مجلس بحانوت تناثرتْ فيه الرياحين ، وانبثَّ السُّقاة بأزيائهم الخاصَّة ، وَصدَحَت القينة مُرَجِّعةً صوتَها على العود ، وقامت بناتُ الحان في ثيابهن الطويلة . وقد يَشربُها مع صَحْبه في الريف ، فَيُنيخون بإبلهم عند غدير ، ويَحمِل إليهم الساقي الخمرَ في زِقّ ، أو يشربها في الأدْيِرَة ، أو يشربها عِندَ خمار يهودي من آنية مختومة .

وقد أثَّر الأعشى فيمن جاء بعدَه من شعراء الخمر ، فوصف الأخطل قِدَم الخمر ، والدِّنانَ التي تُحفَظُ فيها ، وأثرَها في الشاربين ، وَدوْر السكران كما في قوله (١) :

---

(١) ديوان الأخطل . ص ٢ – ٣ – ٤

صَرِيعُ مُدَامٍ يَرْفَعُ الشَّرْبُ رَأْسَهُ   لِيَحْيَا وقدْ ماتَتْ عِظامٌ وَمَفْصِلُ
نُهَادِيهِ أحيانًا وحِينًا نَجُرُّهُ   وما كادَ إلاَّ بالحُشَاشَةِ يَعقِلُ
إذا رفعوا عِظْمًا تَحَامَلَ صَدْرُهُ   وآخَرُ مِمَّا نالَ منها مُخَبَّلُ
أَناخُوا فَجَرُّوا شَاصِياتٍ كأنَّها   رِجالٌ مِنَ السُّودانِ لم يَتَسَرْبَلُوا
تُمَرُّ بها الأيدي سَنِيحًا وبارِحًا   وتُوضَعُ باللَّهُمَّ حَيٍّ وتُنزَلُ
وتُوقَفُ أحيانًا فَيَفْصِلُ بينَنَا   غِناءُ مُغَنٍّ أو شِواءٌ مُرَعْبَلُ
تَدِبُّ دَبِيبًا في العِظامِ كأنَّهُ   دَبيبُ نِمالٍ في نَقًا يَتَهَيَّلُ

فالأخطل وصف السَّكران، وأثرَ الخمر فيه، وشبَّه الدِّنان برجال من السودان، ثم صور الخمر تُؤخَذ بالشمال واليمين، والمجلس وما فيه مِنْ غناء يُسْمَع، وشِواءٍ يُؤْكَل، ثم عاد إلى وصف أثر الخمر، فشبهه بدبيب النمال على كثيب من رمال ينهال.

غير أن الأخطل قَصَّر عن الأعشى في وصف الخمر، وهنا نتساءَل: كيفَ قَصَّر الأخطلُ عن بلوغ شأوِ الأعشى، وقد جاء بعْدَه، وسمِع ما قاله، وتحلَّل من قيود الدين والاجتماع لِنَصْرانيَّته وتَعَصُّبِه للأمويين. وسَنَحَتْ له الفُرَص للقول والاجادةِ فيه؟

والجوابُ عن السؤال يحتاج إلى درس خَمْرِيَّات الوليد بنِ يَزيد والخليعِ وأبي نُوار، ومَعْرفةِ أثر العصبيات القبلية في انتحالِ الشعر، فهذا الدرسُ يجعلنا نَتَبَيَّن ما عسى أنْ يقوله الأعشى بالقياس إلى عصره، وعندئذ يُمكننا أن نعرف ما له وما لغيره، وأن نَميزَ مَنْحُولَ شعره من صَحيحه.

فأبو نُواس مثلاً أبدع في وصف الكئوس أيَّما إبداعٍ في قوله [1] :

تُدارُ علينا الرّاحُ في عَسْجَدِيَّةٍ حَبَتْها بأنواعِ التَّصاويرِ فارسُ
قرارَتُها كِسْرَى وفي جَنَباتِها مَهاً تَدَّريها بالقِسِيِّ الفَوارسُ
فَلِلْخَمْرِ ما زُرَّتْ عليه جُيُوبُها وللماءِ ما دارتْ عليه القَلانِسُ

فالكئوس من صَنْعة فارس ، وهي ذهبية مُزَيَّنَة بأنواع الصور ، ففي قَعْرِها صورةُ كسرى ، وفي أطرافها فرسانٌ يَصيدون المَها بقِسِيِّهم ونِبالهم ، والخمر تُصَبُّ في الكئوس حتى تَبلُغ جُيُوبَ الفرسان ، وتُمزَج بالماء حتى يَبلُغ قلانِسَهم ، فالخمرُ ومِزاجُها بِقَدْرٍ معلوم .

ووصف أبو نواس لون الخمر ، ورقتها ، ولطافتها في قوله [2] :

دَعْ عنكَ لَوْمي فَإنَّ اللَّوْمَ إغْراءُ وَدَاوِني بالَّتي كانتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْراءُ لا تَنزِلُ الأحزانُ ساحَتَها لَوْ مَسَّها حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ
قامتْ بإبريقِها واللَّيلُ مُعتَكِرٌ فَلاحَ مِنْ وَجْهِها في البيتِ لأْلاءُ
فأرْسَلَتْ من فَمِ الأبريقِ صافِيَةً كأنَّما أخْذُها بالعَيْنِ إغْفاءُ
رَقَّتْ عن الماءِ حتَّى ما يُلائِمُها لَطَافَةً وَجَفا عَنْ شَكْلِها الماءُ
فَلَوْ مَزَجْتَ بها نوراً لمازَجَها حتى تَوَلَّدَ أنوارٌ وأضْواءُ

فالخمر داء ودواء ، وهي صفراءُ تَسُرُّ النفس ، وتُغيِّر ما بالجماد ،

---

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٧
(٢) ديوان أبي نواس ص ٦

والساقية مُشرِقة الوجه ، تُضيء البيت ، وتصب خمراً صافيةً من الابريق ، والخمر أرَقّ من الماء وألطف ، فهما لا يتمازجان ، وإنما يمازجها النور ، فتتولّد أنوار وأضواء جديدة .

والرواة يردّون البيت الأولَ إلى قول الأعشى[1] :

وكأسٍ شربتُ على لذّةٍ وأخرى تداويتُ منها بها

ويتبين لنا ، من دراسة بيت أبي نواس في ضوء ما ابتكر من معانٍ في الخمر ، أن البيت يحمل طابعه ، فبينا الأعشى يُقيّد معناه بكأسين : كأسٍ يشربها طلباً للذة ، وكأسٍ يتداوى منها بها ، إذا أبو نواس يُطلِق معناه ، فلا يُقيّده بشيء ، فكأنما هو حكم عام يُصوِّر طبيعة الخمر ، فهي داء ودواء .

فمعنى الأعشى ضيّق محدود ، ومعنى أبي نواس واسع شامل .

وإذا سلّمنا بأن المعنى للأعشى ، فكيف نصدّق أن يمرّ به شاعر كالأخطل من غير أن يُعنى به ، ويُصوّره ، كما صوّر قِدَم الخمر والدنّان والسكران ؟ ولِمَ احتذى الأخطلُ الأعشى في وصف صفاء الخمر وريحها ، ولم يُقلّده في تعمّق ذلك المعنى ؟

وأغلب الظنّ أن الرواة نظموا معنى أبي نواس ، ونسبوه إلى الأعشى ليُخفّفوا من غُلواء الشعراء المحدثين الذين أخذوا بالجديد ، وحسبوا أنهم سبقوا الأقدمين فيما ابتدعوا من معانٍ وصور ، وليُفهموهم

---

(١) الديوان ص ١٢١

أنهم يَنقلون عن القديم، ويَقتبِسون منه على الرغم من تقدُّم العصر، واتِّساع آفاق الثقافة .

ودونكَ مثالاً آخرَ على عبث الرواة بالشعر، فأبو نواس يقول [1] :

اِسْقِيني حتَّى تَراني أَحسَبُ الدِّيكَ حِمَارا

وهي صورة فَكِهة تمثل السكران وقد تأثَّر عَصَبُه البَصَري فغدت الشُّخُوص ضِخاماً أمامَ ناظره، وقد سرق الرواةُ هذه الصورةَ ونسبوها إلى الأعشى في قوله [2] :

شَرِبْتُ الرَّاحَ بالقُلَّتَيْنِ حتَّى حَسِبْتُ دَجاجَةً مَرَّتْ حِمارا

والبيتُ مِمّا نُسِب إلى الأعشى من شِعْر لم يَرِد في ديوانه، وهو يصور لوناً من عَبَث الرواة، فهؤلاء ضاقوا بِمَزاعِم الشعراء المُحدَثين في العصر العباسي، فنظموا معانيَهم، ونسبوها إلى القدماء لِيُبَيِّنوا أنهم يأخذون عنهم، وأنَّ لمعانيهم أَوْلَوِيَّةً في شِعْر القُدامى .

وهكذا نستطيع أن نَمضِيَ في تحديد موضوعاتِ الخمرِ عندَ أبي نواس، ونَتَبَيَّنَ المعانيَ التي ابتكرها هو أو غيرُه، لِنميزَها من موضوعات الأعشى ومعانيه، ولِنَصِلَ بعدَ ذلك إلى تصَوُّر ما يُمكِن أن يقوله الأعشى بالنسبة إلى عصره، وبذا يُمكننا تحديدُ المَجالِ الذي اضطرب فيه، وتَبيُّنِ موضوعاته ومعانيه التي أثَّرتْ فيمنْ جاء بعدَه من شعراء الخمر .

---

(١) ديوان أبي نواس : ص ٢٠٤

(٢) الديوان ص ٢٤١

ومهما يكن الأمرُ فاننا لا نَبْخَسُ الأعشى شِعْرَه حين نُجرِّده من بعض المعاني ، فهو قد أحبَّ الخمر ، وأدْمَنَها ، ووصفها ، وصور مَجالِسَها وآنيتَها وأدواتِها ، وتغنّى بهذا كُلِّه ، فأعْجَب ، وأطْرَب .

وَنتَساءَل أخيراً : أكان الأعشى مُجيداً في وصف الخمر هذه الاجادةَ التي صوَّرها الرُّواة ؟

أغلَبُ الظَّنِّ أنه أجاد وصفَ الخمر بالقياس إلى الجاهليين ، وفاقهم في هذا الباب ، ثم جاء الرواة فاستغلوا إجادتَه ، ووضعوا عليه شِعْراً أضافوه إليه . وربَّما كان من الصعب على المؤرخ أن يَعرِف ما للأعشى مِنْ خمريّاتٍ وما ليس له ، ولعل الدرسَ المُفَصَّلَ لخمريات الوليد ابنِ يزيد والخليعِ وأبي نواس أن يُعين على تَبيُّن فنِ الخمر في العصر الجاهلي ، وعلى تَطوُّرِ هذا الفنِّ فيما تلاه من عصور [1] .

٣ - مدحه :

كانت طبيعةُ الحياة في الجاهلية تدعو إلى التَّحلّي بالشجاعة والكرم والسماحة والبَذْل ، فكان الشاعر يَتغنّى بها ، ويرفَعُها مثلاً أعلى للسيد العربي ، وَقلَّما خلَتْ قصيدة من وصف الممدوح بهاتيك الصفات ، وتشبيهِه بالأسد والسيف والغيْث والبحر .

وكان الشاعر يَرمِي إلى التعبير عن حبه للممدوح وإجلاله له ، ويسلُك إلى مدحه سبيليْن ، فيَميز أولاً بينَ الصفاتِ التي تُلائم المثل

---

(١) محاضرات الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي

الأعلى ، ثم يختار الألفاظ والصور التي تؤدي معانيه ، وتظهر الممدوح في أقوى مظهر ، وتجعل السامعين يشاركونه في إكباره له .

وكان المدح يتوخى الصدق والايجاز ، ولعل قول زهير في هرم بن سنان [1] :

مَنْ يَلْقَ يوماً على علاته هرماً   يَلْقَ السماحة منه والندى خُلُقا

يصلح أن يكون مثلاً لوصف الممدوح في قصد واعتدال .

وكان الأعشى أول من سأل بشعره ، وانتجع به أقاصي البلاد ، فقد قصد الأمراء والأشراف والملوك طمعاً في المال ، فمدحهم ، وأسرف ، وسبقه النابغة وزهير إلى التكسب بالشعر ، فالنابغة تردد إلى المناذرة والغساسنة فمدحهم ، وأخذ مواهبهم ، وزهير مدح هرم بن سنان ، ونال عطاءه .

وقد ذكر الرواة أن تكسب النابغة بشعره نال منه ، وحط من قدره ، ولكنه ظل رفيع المكانة في قومه ، وكذلك زهير ، فتكسبه بالشعر لم ينل منه شيئاً كما يحدثنا الرواة ، والأعشى كان مخوفا مهيبا ، فأبو سفيان فزع حين أحس بقدومه على الرسول في مكة ، فاحتال في صده عنه ، وأغراه بمائة ناقة جمعها من أشراف قريش ، والمحلق أضافه ، وأهدى اليه ناقة أبيه وزقاً من الخمر ، فمدحه ، وكان

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٤ ص ٥٣

مدحه له سبباً لتزويج بناته أو أخواته ، وهذا يدل على أن تكسبه بالشعر لم يغضّ منه ، بل كان مدحه يرفع الممدوح ، ويعلي قدره (١) .

ولم يخفِ الأعشى طمعه في عطاء الممدوح ، بل صرّح به ، وسعى إلى نيله كما في قوله يمدح قيس بن معد يكرب (٢) :

فهذا الثناء وإنّي امرؤٌ   إليكَ بعمدٍ قطعتُ القرنْ
فجئتُكَ مرتادَ ما خبّروا   ولولا الذي خبّروا لم ترَنْ
فلا تحرِمنّي ندَاكَ الجزيلْ   فإنّي امرؤٌ قبلكمْ لمْ أُهَنْ

فالشاعر قصد ممدوحه بعد سماعه بكرمه ، ولولا هذا لم يره .

ولا شكَّ في أن رغبة الشاعر في المال دعته إلى الاكثار من المدح ، والاسرافِ فيه ، وتعدادِ مواهب الممدوح ، وقد التزم هذه الخطة في مدحه ، فانطبع بطابعٍ واحد ، وكانت نغمته راتبة .

وكثُر ممدوحوه ، فكانوا من أشراف العرب في نجد ، وأطرافِ اليمن ، والحجاز ، والحيرة ، وباديةِ الشام ، ولكن الرواة تزيّدوا على الشاعر ، فزعموا أنه أتى عُمان ، وحِمْص ، وأوريشلم ، والنجاشي ، وأرض النبيط ، وأرض العجم ، وأنه وصل إلى كِسْرى ، فمدحه ، ونال عطاءه .

وقد انصرف بمدحه إلى اليمنيين ، فمدح منهم سلامةَ ذا فائش ،

---

(١) في الأدب الجاهلي . ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥
(٢) الديوان ص ٢٢

وأهلَ نجْران ، وقيسَ بن معد يكرب ، والأشعثَ بنَ قيس الكِنْدي ، والأسودَ العَنْسي ، والأسودَ بنَ المنذر أخ النعمان ، ومدح من ربيعة هوذة بن علي ، ومن مُضَر عامرَ بنَ الطُّفَيْل ، وعَلْقَمَةَ بنَ عُلاثَة حين وقع في يده بعد هجائه له ، ثم الرسول [1] .

ويرى الدكتور طه حسين أن الكثرةَ من شعر الأعشى صُنِعَتْ في الاسلام في الكوفة ، وكانت مظهراً للتحالف بين ربيعةَ واليَمَن على مُضَر ، وأن الرواة استغلوا تَطْوافَ الأعشى في البلاد ، فأنطقوه بمدح الأشراف من حِمْيَر وكِنْدَةَ من قبائل اليمن ، وبِمَدْحِ الأشرافِ من ربيعةَ مُناهَضَةً لِمُضَرَ التي كانت فيها النبوة والخلافة [2] .

ومهما يكنْ أمرُ مدحِه الذي دخله الانتحال ، فنحن مضطرون إلى دَرْسه لأنه يَشْغَل القِسْمَ الأكبر من ديوانه من جهة ، ولأنه يُمثّل طريقته الفنية من جهة أخرى ، ولا شكَّ في أنَّ مَنْ وضع على الأعشى مدائحه قد تمثّل روحه ، واحتذى طريقته في النظم .

ويدور مدحه على مَعانٍ مكرورة ، فالممدوحُ وافرُ العطاء ، جزيلُ الهبات ، واسعُ الصدر ، شديدُ البأس أخو حَرْب ، يَعطِف على الضعفاء ، ويَحمي الجار ، ويَتحمَّل التَّبِعات .

وهو يُليحّ على صفة الكرم ، فيصور مَظاهرَ كرمِ الممدوح ، ويشبهه بالفرات .

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٥٧

(٢) في الأدب الجاهلي ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨

وأسلوبُه في المدح واسع مُفصَّل يَزيدُ على معانيه ، ويقوم على الألفاظ الضخمة وتكرارها ، وهو يعتمد على ألفاظه أكثرَ مما يعتمد على صُوَره ، ولذا نراه يَحشُد الألفاظ حَشْداً ليبلُغ ما يريد من تصوير ممدوحه .

فقد مدح الأسودَ بن المُنذِر بقصيدة مطلعها[1] :

ما بُكاءُ الكبيرِ بالأطلالِ ... وسُؤالي فهَلْ تَرُدُّ سُؤالي

فبدأها بالوقوف على الأطلال ، والتعبيرِ عن عاطفة البيْن ، ثم انتقل إلى وصف ناقته ، ثم تخلّص إلى المدح بقوله[2] :

لا تَشَكّيْ إليَّ وانتجعي الأسْـ ... ـوَدَ أهلَ النَّدى وأهلَ الفعالِ
فرْعُ نبعٍ يهتزُّ في غُصُنِ المجْـ ... ـدِ غزيرُ النَّدى شديدُ المحالِ
عندَهُ الحزْمُ والتُّقَى وأسا الصَّرْ ... عِ وحَمْلٌ لمُضْلِعِ الأثقالِ
وصِلاتُ الأرحامِ قدْ عَلِمَ النّا ... سُ وفَكُّ الأسْرَى مِنَ الأغلالِ
وهَوانُ النفسِ العزيزةِ للذِّكْـ ... ـرِ إذا ما التقتْ صدورُ العوالي
وعَطاءٌ إذا سألْتَ إذا العِـذْ ... رَةُ كانتْ عطيَّةَ البُخّالِ
ووفاءٌ إذا أجرْتَ فما غُرَّتْ ... حِبالٌ وصَلْتَها بحِبالِ
يهَبُ الجِلَّةَ الجَواجِرَ كالبُسْـ ... ـتانِ تحنو لِدَرْدَقٍ أطفالِ
والبَغايا يَرْكُضْنَ أكسِيَةَ الإضْـ ... ـريجِ والشَّرْعَبِيَّ ذا الأذيالِ
وجياداً كأنها قُضُبُ الشَّوْ ... حَطِ تعدو بِشِكَّةِ الأبطالِ
والمَكاكيكَ والصِّحافَ من الفِضَّـ ... ـةِ والضَّامِزاتِ تحتَ الرِّجالِ

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٣

(٢) المصدر نفسه ص ٧ — ٩

فهو يسأل ناقته أن لا تَشْكُوَ اليه ما أصابَها من كَلال ، وأن تقصِد الممدوح رجلَ النَّدَى والفَعال ، وهنا يرضى في مدحه ، فيصفه بالمجد والكرم والشجاعة ، ويصور مَظاهِر هذه الصفات ، كما يمدحه بالحزم والعَزْم والمَضاء والمَهابة والجَلال ، وهي صِفاتٌ يُمْدَح بها المــلوكُ الذين يُحسنون تدبيرَ أمورِ دولتِهم وسياسةَ رَعِيَّتِهم .

فالممدوح إنسان ماجد ، وافر العطاء ، ومواهبُه كثيرة مِنْ إبل كالنخل ، وإماءٍ تَرْكُض في أكْسِيَة من خَزّ ، وتُجَرِّر الأذيال ، وجيادٍ تبدو كقصب الشوحط الصُّلْبِ المستقيم ، وتعدو حاملةً عُدَّة الفُرسان ، وكئوس وآنية من فضة ، وجِمالٍ كريمةٍ تَسْكُن ، فلا تَرْغي ، ولا تَجْتَرُّ إذا رُكِبَت .

وتلك العطايا تُذَكِّرُنا عَطايا النعمان التي صوَّرهـا النابغة في قوله (١) :

الوَاهِبُ المِائةَ المِعْكاءَ زَيَّنَها سَعْدانُ تُوضِحَ في أوبارِها اللِّبَدِ
والأُدْمَ قد خُيِّسَتْ فُتْلاً مَرافِقُها مَشْدودَةً بِرِحالِ الحِيرَةِ الجُدُدِ
والرَّاكِضاتِ ذُيُولَ الرَّيْطِ فانقَهَا بَرْدُ الهَوَاجِرِ كالغِزْلانِ بالجَرَدِ
والخَيْلَ تَمْزَعُ غَرْباً في أعِنَّتِها كالطَّيرِ تَنْجومن الشُّؤْبُوبِ ذي البَرَدِ

وهذا التَّشابُهُ في أنواع العطايا يَدْعو إلى الشك في مَـدْحِ الأعشى للأسودِ بنِ المُنْذِر .

---

(١) المختار من الشعر الجاهلي ص ١٥٢

وكما صوَّر مظاهرَ كرمِ الممدوح ، صور مظاهر شجاعته ، فهو يبذُل نفسه في الحرب في سبيل المجد ، وحسْنِ الذِّكر ، بل هو خيرٌ من كثيرين ، وهو يعِدُّ العُدَّة للقتال ، فلا ينزِل على حُكْم الجُهَّال ، وجُندُه من السادات ، وهؤلاء فُرسان مَهرة لا يجبُنُون ، ولا يعتريهم الفزَع في الحرب ، وعليهم دُروعٌ من نسْجِ داوود ، قد دُهِنَتْ بالزيت حِفظاً لها من الصدَأ ، وحُمِلَتْ على الجِمال ، وقد أعد الأسود هذه العُدَّة للعدوِّ لا للصديق .

ويقصُّ خبره مع « الرباب » التي نبذَتْ طاعته ، ويصِف الكتيبة التي أرسلها لحرْبها ، فهي تحمِي المُستجير ، وتُمِدُّها قِطع الخيل ، فتُذهِل الشيخَ عن بنيه ، وتُشرِّد الابلَ التي اعتزل بها راعيها في أطراف الرمال ، ثم يصور طاعة الرباب بعد عِصْيانها ، وما ذاقتْ من عذاب (١) .

ويقصُّ خبرَه مع « دودان » و « ذبيان » ، فيصور حرْبَه لهم ، وما سُفِكَ من دمائهم ، وسُبِيَ من نسائهم ، وأُسِر من شيوخهم ، وغُنِم من أموالهم ، وهكذا غنِي جنودُه بعدَ فقْر (٢) .

ويمدحه بعديد من الصفات التي يتحلَّى بها الملوك في تصريف شئون الرعية والدولة ، فهو يجمع بين الحزْم ، والحذَر ، ويتحمَّل التَّبِعات ،

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ١١ ـ ١٣
(٢) المصدر نفسه ص ١٣

ويُعاقب المتكبر ، ويمتاز بالأرْيَحيّة ، ويقوم حَكَماً بين الناس ، فيُثيب المطيع ، ويُعاقب العاصي .

ويمدحه أخيراً بصفات شخصية ، فهو يَصِل الأرحام ، ويَحفظ الوُدّ ، ويُنجد المستجير .

وهكذا وصف الأعشى ممدوحَه بالشجاعة والكرم والحزم والعزم وتَحَمُّلِ التَّبِعات ، ومُجازاة المطيع والعاصي ، ولكنه عُني بمظاهر الشجاعة والكرم ، وصوّرها تصويراً مُفصَّلا .

وإذا كان العربيُّ يَجُود عن طَبْع وإيثار ، فان الملك يجود عن استِكْفاء ، ويُعطي ما يَزيد على حاجته ، ولذا يمدح الشاعر في الأول كَرَمَ الطبع ، وفي الثاني مَظاهِرَ الكرم .

كذلك لا يمدح الملك بما يمدح به الفرد من شجاعة ، وإنما يصور الشاعر عَظَمَةَ ملكه ، وسَعَةَ سلطانه ، ومهارتَه في تدبير شئون الدولة ، وعُدَّةَ جيشه ، وعُدَدَه ، ووقائعَه ، وغنائمَه .

ولا شكّ في أن مُنْتَحِل هذه القصيدة تأثّر في وصف كرم الممدوح بما قيل في المناذرة ، وقد وجدنا تشابُهاً بين الأعشى والنابغة في وصفِ المطايا ، كذلك تأثّر المُنْتَحِل في وصف كتيبة الممدوح ، بما كان يُجهَّز من جيوش في العراق إبّانَ العصرِ الأُموي لاخضاع الثائرين على الحكومة ، ولمُتابعةِ الفُتُوح شَرْقيَّ العراق .

ومع أن الأعشى فَصَّل مدحَه للأسودِ بنِ المنذر ، وصوّر عطاياه ،

فانه أغفلَ صورةَ الفرات التي أفاد منها النابغة في مدحه لأخيه النعمان ، وقد كان نهرُ الفرات ظاهراً لِعَيْنَيِ الأعشى ، مُصوَّراً في شعر النابغة .

ويزدادُ الأمرُ غرابةً حين نقع على صورة الفرات في مدح الأعشى لقيس بنِ معد يكرب الكِنْدي ، وقد كانت قصائدُه في مدحه أطولَ قصائدِه ، وأمتنَها ، وأكثرَها تصرُّفاً في فنون القول .

وقد ابتدأ قصيدتَه الميميةَ في مدح قيسٍ ذاك بالغزل ، ثم انتقل إلى وصف الشراب واللهو ، ثم تخلَّص إلى المدح ، وأخيراً صوَّر بعض أسفاره .

ويهمنا من ذلك الوقوفُ على صورة الفرات في قوله (١) :

وما مُزْبِدٌ مِنْ خليجِ الفُرا ... تِ جَوْنٌ غَوارِبُهُ تَلْتَطِمْ
يَكُبُّ الخَلِيَّةَ ذاتَ القِلا ... عِ قد كاد جُؤْجُؤُها يَنْحَطِمْ
تَكَأْكَأَ مَلاَّحُها وسْطَها ... مِنَ الخوفِ كَوْثَلَها يَلْتَزِمْ
بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِما عِنْدَهُ ... إذا ما سَماؤُهُمُ لَمْ تَغِمْ

وإذا قرنّا صورةَ الأعشى بصورةِ النابغة في قوله (٢) :

فما الفُراتُ إذا هبَّ الرِّياحُ لَهُ ... تَرْمي غَوارِبُهُ العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ
يَمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ ... فيه رُكامٌ مِنَ اليَنْبُوتِ والخَضَدِ

---

(١) الديوان ص ٣١

(٢) مختار الشعر الجاهلي . شرح مصطفى السقا . مطبعة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ١٥٤ - ١٥٥

يظلُّ من خوفه الملاحُ مُعتصِماً بالخَيزُرانة بعدَ الأَيْنِ والنَّجَدِ
يوماً بأجودَ منه سيبَ نافلةٍ ولا يحولُ عطاءُ اليومِ دونَ غدِ

تبيَّن الفرقُ بين الصورتين ، فالنابغة صوَّر الرياح تهبُّ على النهر ، فتضطرب أمواجُه ، وترمي شاطئيه بالزَّبد ، والأعشى صور زبد النهر يسود ، وأمواجه تتلاطم ، فقصَّر عن النابغة في وصف هبوب الرياح ، وحركةِ الموج المتكسِّر على الشاطئين .

والنابغة زادَ على الأعشى وصفَ الرَّوافد التي تنصبُّ في النهر حاملةً رُكاماً من الشجر المتكسر .

والنابغة صوَّر الملاّحَ مُعتصِماً بِسُكّان السفينة خوفاً من الغرَق ، وقد ناله الاعياء ، والأعشى فصَّل صورة الملاح وسفينته ، فصور النهر يلقيها على وجهها حتى ليكاد صدرُها ينحطم ، وصوَّر الملاح يتمايل وسطها ، ويلجأ إلى سُكّانها من شدة خوفه .

وكلاهما يجعل ممدوحه أجودَ من النهر في مُختلِف الأحوال .

فصورةُ الأعشى تحتوي المشاهد التي صوَّرها النابغة ، وتشابُه الصورتين هذا التشابُهَ يُوحي إلى النفس الشكَّ في أبيات الأعشى ، وكما احتذى المُنتحل النابغةَ في وصفِ عطايا النعمان احتذاه في تصوير النهرِ الفرات .

والألفاظُ في أبيات الأعشى تدل على أن بيئةَ المُنتحِل كانت تُعنى باللغة عناية خاصة .

وعدا ذلك فصورةُ النابغةِ أصيلةٌ اشترك في إبداعها خيالُ الشاعر

وحسّه ، فجاءت تفيض بمعاني القوة والحياة ، وتؤثر في خيالنا وشعورنا ، أمّا صورة الأعشى فقد صاغها المنتحل بألفاظ جديدة ، ولكن روحها أفلتت منه .

وكما وردت صورة الفرات في مدح قيس بن معد يكرب من اليمنيين وردت في مدح هوذة بن علي من الربعيين ، ولعل عدم ورودها في مدح المضريين يقوّي الشك في مدح الأعشى ، وتاريخ الأدب يؤيّد هذا الشك إذ يروي أن الكوفة كانت تقدّم الأعشى على سائر الشعراء الجاهليين ، والبصرة كانت تقدّم امرأ القيس ، والحجاز كان يقدم النابغة وزهيرا .

إلى جانب ذلك نجد للشاعر مدحاً خالياً من التكلف والمبالغة ، كأن يذكر عطف ممدوحه على فقراء قومه ، وسعيه في سبيلهم ، فيقول [1] :

وأهان صالح ماله لفقيرها وأسا وأصلح بينها وسعى لها

او يذكر عطفه على الأيتام [2] :

وربّيت أيتاماً وألحقت صبية وأدركت جهد السّعي قبل عنائكا

أو يجعل الكرم سجية من سجاياه [3] :

يرى البخل مرّاً والعطاء كأنّما يلذّ به عذباً من الماء باردا

---

(١) الديوان ص ٢٥
(٢) الديوان ص ٦٦
(٣) الديوان ص ٤٩

ومهما يكن مِنْ شيء فان الأعشى لم يَحِدْ في مدحه عن المثل الأعلى الذي ساد عَصْرَه، فقد وصف ممدوحيه بالكرم والشجاعة والحِلْم والسيادة والشرف .

والشاعر – كما رأينا – لا يُعنى بصفة الكرم وَحسْبُ، وإنما يصور مَظاهِرَها في حياة الممدوح، وكذلك يفعل في جلاءِ صفةِ الشجاعةِ في حياة الملوك، فيصور الجُنْد وعُدَّتهم وغاراتِهم وَغنائِمَهم .

وقد ابتكر الأعشى تعبيراً جديداً في وصفه لممدوحه بالشجاعة، فهو أخو حَرْب في قوله (١) :

أخو الحَرْبِ لا ضَرَعٌ واهِنٌ ولم يَنتعِل بقِبالٍ خَذِمْ

وصور عُدَّة الحرب من رماح وخيول ودروع في قوله (٢) :

وَأعْدَدْتَ للحربِ أوزارَها رِماحاً طِوالاً وَخيْلاً ذُكُورا
ومِنْ نَسْجِ داوودَ مَوْضُونةً تُساقُ مَعَ الحَيِّ عِيراً فعيرا
اذا ازدحمَتْ في المكانِ المَضيـ ـقِ حتَّ التزاحُمُ منها القَتيرا
لها جَرَسٌ كَحَفيفِ الحَصَا دِ صادف بالليلِ ريحاً دَبُورا

ويصور قيسا مُوقِداً للحرب في قوله يخاطب ناقته (٣) :

تُلاقِين قَيْساً وَأشْياعَهُ يُسعِّرُ للحَرْبِ ناراً فنارا

---

(١) الديوان ص ٣١
(٢) الديوان ص ٧١ – ٧٢
(٣) الديوان ص ٣٧

ويجعله أحلم من قيس ، وَأجْرَأ من الأسد في قوله (١) :

وَأحْلَمُ من قيسٍ وَأجْرَأُ مُقْدِمًا لدَى الرَّوْعِ من لَيْثٍ إذا راحَ حارِدا

ولا نجد وصفاً للغارة في مدح الأعشى ، وأقوى ما وصفها به أنها شديدة يثور فيها الغبار ، فينعقد سحابةً فوقَ الرءوس (٢) :

فتَرَى سَوابِقَها يُثِرْنَ عجاجَةً مِثْلَ السَّحاب إذا قفَوْتَ رِعالَها

ولقد كنا نتوقَّع أن نجد في شعره صُوَراً للحروب التي كانت تشبُّ بينَ القبائل ، فهو يصور عُدَّةَ الجُنْد قبلَ الغزوة ، حتى إذا عَرَض للغارة وصفها في بيت أو بيتيْن مُبيِّنا شِدَّتَها وَهوْلَها ، هذا إلى أن الغاراتِ بينَ القبائل استمرت حافلة بالشرور والآثام .

أمَّا الممدوحُ المتَّصِف بالحِلْم ، فقد صوَّره الشاعر في صورة جَمَل ذَلول في قوله يمدح قيس بن معد يكرب (٣) :

عوَّدْتَ كِنْدَةَ عادةً فاصْبِرْ لها اغْفِرْ لِجاهلها ورَوِّ سِجالَها
وكُنْ لها جَملاً ذَلولاً ظَهْرُهُ احمِلْ وكنتَ مُعاوِداً تحْمالَها

وصورةُ الجملِ الذَّلولِ مُنتزَعَةٌ من حياة البادية .

إلى جانب الحِلْم يَحرِص الشاعر على وصف ممدوحه بصفة السيادة والشرف . وهو يُثبِت أولاً أنه سليلُ بيتِ ماجدٍ كريم ، ثم يَعرِض

---

(١) الديوان ص ٤٩
(٢) الديوان ص ٢٦
(٣) الديوان ص ٢٥

مظاهر السيادة من تحمّل التبعات ، وخوض غمار الحرب ، وحفظ الذمة ، وصون الجار .

ولكن الأعشى قد يغلو في مدحه حتى يقع في الاحالة كقوله [1] :

فتىً لو يُنادي الشمسَ ألقتْ قناعَها أو القمرَ الساري لألقى المقالدا

فالشاعر يصور سلطانَ ممدوحه يمتدُّ ويرتفع حتى يبلغ السماء ، ويتحكّم في الأفلاك ، وهو قول مُبالغٌ فيه ، وخفّف من المبالغة استعمالُ أسلوبِ الشرط في التعبير عن قوة الممدوح .

ويهمُّنا أخيراً أن نحدد منزلة الأعشى بين شعراء المديح أمثالِ النابغةِ وزهير.

فالأعشى مُسرِفٌ في مدحه ، ينظمه طمعاً في مال الممدوح ، ويفنى فيه ، فتختفي شخصيته كما تختفي شخصية الممدوح ، وهو يحشد الألفاظ والصور في مدحه حشداً ، فيملأ السمْع ، ويثير الخيال ، ولكنه لا يبلغ القلب ، ولا يستقرُّ في النفس .

ولقد ميَّز في مدحه الصفاتِ التي يحرص عليها العربي ، لكنه لم يشعُرْ بها شعوراً قويا حين صوّرها ، فمدحُه يشِفُّ عن طمعه في المالِ أكثرَ مِمّا يصور إجلالَه للممدوح .

فأمّا النابغة فهو مُتوسِّط في مدحه بينَ الاقتصاد والاسراف ، أو

---

(١) الديوان ص ٤٩

بينَ الغُلُوّ والايجاز ، وربَّما غلا في مَدْحِه كما فعل في مدح النعمانِ والاعتذارِ إليه .

على أننا نُحِسُّ بصدقه في مدحه واعتِذارِيّاته ، فقد كان شاعراً بقوة النعمان وبأسِه وسَطْوتِه ، فهو اللّيلُ الذي يُدرِكه أينما كان [1] :

فانّكَ كالّليل الذي هو مُدرِكي وإنْ خلتُ أنّ المُنْتأى عنكَ واسعُ

وهو الشمسُ التي يُخفي نورُها الكواكب [2] :

فانكَ شمسٌ والملوكُ كَواكِبٌ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنهُنَّ كَوْكَبُ

ولقد كان الأعشى مفتوناً بعطايا النعمان ، ومظاهرِ الترف والنعيم في مُلْكه ، فعَدّدَ عطاياه كما يُعَدِّد الصَّبيُّ لُعَبَه ، وشَبَّهه في جوده بالفرات ، وجعل جودَه خيراً منه وأبقى .

وتلك الصورة تخدعنا عن أنفسنا لأنها تَرتفِع عن مستوى الصور الفردية لِرَجُلٍ من عامّة الناس ، وهي تُرْضي حاسّتنا الفنيـــة لأنها عُرِضَتْ في إطار من الموسيقا ، ونَقلَتْ عاطفةَ الشاعر وأحاسيسَه ، واستطاعتْ أنْ تؤثّر في عواطفنا وخيالنا .

وأمّا زُهيرُ بنُ أبي سُلمَى فقد كان مُقتَصِداً في مدحه ، مُعجَباً بشخصيته ، شاعراً بذاته ، فلم يَفْنَ في الممدوح ، وقد مَيَّز في مدحه الصفاتِ المُثلى التي يَتطلّع إليها العربي ، وتَغنّى بها .

---

(١) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٨

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٥

فهرمُ بنُ سنان كريمٌ بطبعه كما في قول زهير (١) :

قد جعل المُبتغون الخيرَ في هرمٍ — والسائلونَ إلى أبوابه طُرُقا
من يلقَ يوماً على علاته هرماً — يلقَ السماحةَ منه والندى خُلُقا

وكرمُ هرم مظهر حيٌّ صادق لذلك الطبع ، فهو يهشّ في وجه سائله كمن يُعطِي ولا يُعطَى شيئا (٢) :

تَراهُ إذا ما جئتَهُ متهلّلاً — كأنّكَ تُعطيهِ الذي أنتَ سائِلُهْ

فزهير واضحُ الشخصية يمتاز بالحكمة وبُعدِ النظر ، وعندما مدح هرمَ بنَ سنان والحارثَ بنَ عوف وصف سعيَهما بالصلح بين عبسٍ وذُبيان ، ورغبتَهما في السِّلْم ، ولم ينتظِر أن ينتدِبَهما أحدٌ لهذه المُهمَّة .

ولمّا وفّاهُما الشاعرُ حقَّهُما من المدح ثاب إلى نفسه ، وعبَّر عن رأيه في الحرب .

٤ - فخره :

قال الأعشى في الفخر كما قال في غيره من أبواب الشعر ، والفخرُ يدخل في باب الحماسة ، ويتصل بالبسالة والاقدام في مواضيع الضَّرْب والطِّعان . كما يتصل بأخذ الثأر ، والفخرِ بالأهل والعشيرة .

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٤٩ - ٥٣
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٢

ولا شكَّ في أن حياة البداوة ، وما يكونُ بين القبائل من تنافُس وتناحُر وتفاخُر وحروبٍ تدوم أياماً وأعواما ، تُمِدُّ الشاعرَ بالكثير من معاني الفخر ، وتجعَل لهذا البابِ مكاناً كبيراً بين أبواب الشعر .

وقد شغَلَ الفخرُ المحلَّ الأولَ في مختاراتِ أبي تمام حتى سمَّاها بالحماسة ، ومُعظَمُها لشعراء جاهليين واسلاميين .

ونستطيع أن نُمثِّل لفخر الأعشى بقوله في معلقته يُخاطِب يَزيدَ ابنَ مسهر الشيباني مُهدِّدا ، ويَستعلي عليه مُفاخِراً بقبيلته .

وسببُ نَظْمِ المعلقة ، فيما يروي صاحبُ الأغاني ، أن رجلاً اسمُه ضُبَيع من بَني كَعْب بنِ سَعْد ، وهو أحدُ بيوت قيسِ بنِ ثعلَبة قومِ الأعشى ، قتَلَ رجلاً يُدعَى زاهِرَ بنَ سَيَّار من بَني هُمام ، وهو أحدُ بيوتِ ذُهْلِ بنِ شَيْبان قومِ يَزيد ، وكان القاتلُ ضُبيعٌ لا يَعدِل القتيلَ زاهرا . ثم همَّ بنو سيّار أنْ يأخذوا بثأر قتيلهم ، فنهاهم يَزيد أن يَقتُلوا به ضبيعاً ، ونصحهم أن يقتلوا به سعيدا ، وهو أحد بني سَعْد بنِ مالك .

ولمّا بلغ بَني قيس بنِ ثعلبة ذلك هاجم الأعشى يَزيدَ بقصيدته ، وطلب اليه أن يَدَعَ بني سيّار وبني كعب وحْدَهم ، فانه إن أعان بيتُ ذُهْل بَني سيّار لم يكن لقومه بُدٌّ من أن يُعينوا بني كعب .

وقد كان الشاعر مهَّد لفخره بوصف هريرة ، ووصفِ السحاب والرِّحْلة ، والتَّغنِّي باللهو والشراب ، ثم انتهى إلى الفخر بقوله (١) :

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٦١

أبلغ يزيد بني شيبان مألكةً ... أبا ثبيتٍ أما تنفكّ تأتكلُ
ألستَ منتهياً عن نحت أثلتنا ... ولستَ ضائرها ما أطّت الأبيلُ
تُغري بنا رهط مسعودٍ وإخوته ... عند اللقاء فتُردي ثمّ تعتزلُ
لأعرفنّك إن جدّ النفير بنا ... وشبّت الحرب بالطوّاف واحتملوا
كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعلُ
لأعرفنّك إن جدّت عداوتنا ... والتُمس النصر منكم عوضُ تحتملُ
تلزم أرماح ذي الجدّين سورتنا ... عند اللقاء فتُرديهم وتعتزلُ
لا تقعدنّ وقد أكّلتها حطباً ... تعوذ من شرّها يوماً وتبتهلُ
قد كان في أهل كهفٍ إن هُم قعدوا ... والجاشريّة من يسعى وينتضلُ
سائل بني أسدٍ عنّا فقد علموا ... أن سوف يأتيك من أنبائنا شكلُ
واسأل قشيراً وعبد الله كلّهم ... واسأل ربيعة عنّا كيف نفتعلُ
إنّا نقاتلهم حتى نقتّلهم ... عند اللقاء وهم جاروا وهم جهلوا
كلّا زعمتم بأنّا لا نقاتلكم ... إنّا لأمثالكم يا قومنا قُتُلُ
حتى يظلّ عميد القوم متّكئاً ... يدفع بالرّاح عنه نسوةٌ عُجُلُ
أصابه هندوانيٌّ فأقصده ... أو ذابلٌ من رماح الخطّ معتدلُ
قد نخضب العير من مكنون فائله ... وقد يشيط على أرماحنا البطلُ
هل تنتهون ولا ينهى ذوي شططٍ ... كالطعن يذهب فيه الزيت والفُتُلُ
إني لعمر الذي خطّت مناسمها ... تخدي وسيق إليه الباقر الغُيُلُ
لئن قتلتم عميداً لم يكن صدداً ... لنقتلنْ مثله منكم فنمتثلُ
لئن مُنيت بنا عن غبّ معركةٍ ... لم تُلفنا من دماء القوم ننتفلُ
نحن الفوارس يوم العين ضاحيةً ... جنبي فُطيمة لا ميلٌ ولا عُزُلُ
قالوا الركوب فقلنا تلك عادتنا ... أو تنزلون فإنّا معشرٌ نُزُلُ

فهو يتخيل صاحباً له ، ويسأله أن يبلغ يزيد رسالة منه ، والرسالة تشتمل على المعاني التي ساقها الشاعر في معرض التهديد والفخر .

فيزيد تغلي نزعة الشر في صدره ، فهو ينال من أصل قوم الأعشى ومجدهم ، ويغري بهم قوم مسعود ، حتى إذا اقتتل الفريقان اعتزلهم يزيد كأنه لم يحرض على القتال .

ويصور الأعشى يزيد صورة ساخرة ، فهو عندما ينال من قوم الأعشى ، ويوقع الحرب بينهم وبين خصومهم ، وينتشر المحاربون كالطوفان في ساح المعركة ، لا ينال من قوم الأعشى إلا ما يناله وعل ينطح صخرة ، فيوهين قرنه من غير أن يؤثر فيها ، وهي صورة ساخرة مضحكة .

ويحط الشاعر من قدر يزيد ، فهو لا يخوض حرباً مع بني مسعود ، وإنما يلقيهم فيها حطبا ، ثم يعتزلهم ، ويقعد بعيداً عنها ، مستعيذاً من شرها ، مبتهلاً إلى الله أن يجنبه لظاها . وهي صورة ذات وجهين متضادين ، فيزيد يوقد نار الحرب ، ثم يولي بعيداً خشية الأذى .

ويتابع فخره ، فيذكر القبائل التي عاداها قومه ، وغلبوا عليها كأسد بن ربيعة ، وقشير بن كعب بن ربيعة ، ويطلب إلى يزيد أن يسأل ربيعة كلها عن قومه الذين قتلوا أعداءهم تقتيلا ، وجزوهم بما جنوا عليهم .

ثم يخاطب قوم يزيد الذين ظنوا أن بني قيس بن ثعلبة ان

يُقاتِلوهم ، وليسوا أنْداداً لهم ، فيؤكد أن قومه سيُقاتِلونهم قتالاً يخِرُّ فيه عميدُهم صريعَ السيوف والرماح ، مُتَّكِئاً على مِرْفقيه ، قد هلَك مِنْ حوله الرجال ، ودفعتْ عنه النِّسوةُ بالأيدي ، ويصور قومه بصيرينَ بمواضيع الضَّرْبِ والطعن ، يُصيبون المَقاتِل ، ويُسقِط على أرماحهم الأبطالُ مُخضَّبين بدمائهم ، ثم ينصَح قومَ يزيد أن ينتهوا ، فهذا خيرٌ لهم . فان لم يفعلوا فسيَطْعَنونَ طعْناً ينجلي عن جروح عميقة تفور فيها الفُتُل .

والصورة مركبة من أجزاء ، فنحن نشهَد المُحاربين من الفريقيْن ، وحرَكاتِ الضرب والطعن ، وسقوطَ القتلى والجرْحى ، واشتراكَ النِّسوة في المعركة ، وعُدَّةَ الحرب من سيوف هِنْدية ورِماح خطِّية ، كما نبصر الجراح العميقةَ تفور فيها الفتل ، وهي صُوَرٌ قاتمة راعبة .

ثم يُقسِم بالكعبة التي تقصدها الابل ، ويُساق إليها البقَر للنحر ، أن يقتلَ قومُه أفضَلَ سيد في قوم يَزيدَ إنْ هُمْ قتلوا منهم سيداً أرْفعَ من قتيلهم زاهر .

والقَسَمُ بالكعبة التي يُعظِّمُها العربُ جميعا ، وبما يُراق على جوانبها مِنْ دَمٍ ، يُذكرنا النابغة الذي أقسم بِرَبِّ الكعبةِ والطيْرِ العائذاتِ بالحرم ، والدماءِ المُراقةِ على الأنصاب ، مُؤكِّداً براءته مما اتُّهِم به .

ثم يفخر باعتيادهم القتال ، فهم لا يَملُّون الضرب والطعن ، ولو

قدَّر لخصومهم أن يجرِّبوهُمْ عقيبَ معركةٍ خاضوها لوجدوا فيهم نشاطاً للقتال .

ويذكِّر خصومَهم بأيام لهم ، فهم فوارسُ يوم العَيْن ، يجيدون ركوبَ الخيل ، ويحملون عدَّة الحرب ، ويقاتلون راكبين راجلين .

فالشاعر يفخر بمجدِ قومه ، وأصليهم ، وأيامهم ، وعنفهم في القتال ، واعتيادِهم اياه ، وبصَرِهم بمواضع الضرب والطعن ، ويذكر من عدَّة الحربِ الخيلَ والفرسانَ والسيوفَ والرماح ، ويوردُ من ذلك صوراً قائمة راعبة .

الفصل الثالث

فنه

قال الأعشى في الغزل والخمر والمدح والهجاء والوصف، وتصرّف في هذه الفنون، فغزُر شعره، وطالت قصائده، وامتاز بذلك مِنْ بيْنِ شعراء الجاهلية .

وأولُ ما نلحظُ في ديوانه طولُ قصائده، فالقصيدة تطولُ حتى تبلُغَ ثمانين بيتا، وهذه الصِّفةُ غالبةٌ على شعره، وقد أشار اليها القدماء، فذكر صاحب الأغاني أن أبا عُبَيْدَة قال (١) :

« مَنْ قدّم الأعشى يحتجُّ بكثرة طِواله الجياد وتصرّفه في المديح والهجاء وسائر فنونِ الشعر، وليس ذلك لغيْرِه » . وقدّمه أبو عبيدة (٢) على طرفة : « لأنه أكثرُ عددَ طِوال جِياد، وأوصفُ للخمر، وأمدحُ وأهجَى » .

ومع أنّ تدوينَ الشعر في القرن الثاني اعتمد على الحِفْظ والرِّواية، فان قصائدَ الأعشى وصلتْ إلينا طويلةً على حينَ وصلتْ قصائدُ غيرِه

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٠٩
(٢) الشعر والشعراء ج ١ ص ٢٦٣

من الشعراء بتمامها ، وهذا يحملنا على الشكّ في شعره ، فمها تكن الذاكرةُ قويةً أمينةً في النقل ، فانها لا يمكن أنْ تقيّد القصيدةَ كما تقيدها الكتابة .

١ ـ بناء القصيدة :

وجرى الأعشى في نظامِ القصيدةِ على النَّهْج التقليدي مِنْ وقوفٍ بالديار ، وتشبيبٍ بالمحبوبة ، ووصفِ الناقةِ والطريق ، وانتقالٍ إلى الغرض المقصود .

غير أنه لم يلتزمْ ذلك النهجَ تماماً في قصائده ، وإنما نوّع فيه وبدّل ، فقد مدح قيسَ بنَ معدِ يكَرِب بقصيدته النونية ، ومطلعُها (١) :

لعَمْرُكَ ما طولُ هذا الزَّمَنْ   على المرْءِ الا عنَاءٌ مُعَنّ
يظَلُّ رَجيماً لرَيْبِ المَنُونْ   ولِلسُّقْمِ في أهلِهِ والحَزَنْ
وهَالكِ أهْـلِ يُجِنُّونَهُ   كآخرَ في قفْرَةٍ لم يُجَنْ
ومَا إنْ أرَى الدّهرَ في صَرْفِهِ   يُغَادِرُ مِنْ شارخٍ أوْ يَفَنْ

فبدأها بذكْرِ عِبَر الدهر ، ثم انتقل إلى الغزل ، ثم وصف الخمر ، ثم وصف الناقة والطريق ، وأخيراً انتهى إلى المدح ، وهـذه الطريقةُ مألوفةٌ في بناء القصيدة .

ومدح قيساً ذاك بقصيدة ثانية ، ومطلعُها (٢) :

أتَهْجُرُ غانيــةً أم تُليمْ   أمِ الحَبْلُ واهٍ بها مُنْجَذِمْ

---

(١) الديوان ص ١٣ ـ ١٤

(٢) الديوان ص ٢٨

فبدأها بالغزل ، ثم وصف اللهو والشراب ، ثم تخلَّص إلى المدح ، ثم صور الحوارَ بينه وبينَ ابنتِه ، فهذه تحرِص على استبقائه بجانبها ، وتخشى أن يجفوها الأهل بعدَ رحيلِه ، وهو يُصبِّرها ، ويَضرِب لها الحوادثَ مثلاً للعظة والعِبْرة .

ومدح الأسودَ بنَ المُنْذِر بلاميته ، ومطلعُها (١) :

ما بُكاءُ الكبيرِ بالأطـــلالِ وسُؤالي فهـــلْ تَرُدُّ سُؤالي

فاستهلَّها بسؤالِ نفسِه عن جَدْوى بكاءِ الديار واستنطاقِها ، ثم صور الدِّمْنَة تعبَثُ بها الرياح ، وتذكَّر « جُبَيْرَةَ » وبُعْدَه عنها ، وتعذُّرَ وصولِه اليها ، واستعادَ ماضِيَه معها ، ثم وصفها وصفاً حِسِّيا ، ثم تسلَّى عنها بالسفر على ناقته (٢) :

فاذْهَبِي مَا إليْكِ أدْرَكَني الحِلْـ مُ عَدَاني عَنْ ذِكْرِكُمْ أشْغَالي

وَعَسيرٍ أدْماءَ حادِرَةِ العَيْـــ نِ خَنُوفٍ عَيْرَانَةٍ شِمْلالِ

قد تعلَّلْتُها على نَكَظِ المَيْـ طِ وقد خَبَّ لامِعاتُ الآلِ

وانْحرف في وصف ناقته إلى تشبيهها بحمار الوحش ، وأمعن في وصفه (٣) :

عَنْتَرِيسٌ تعْدُو إذا مسَّها السَّوْ طُ كَعَدْوِ المُصَلْصِلِ الجَوَّالِ

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٣

(٢) المصدر نفسه ص ٥

(٣) المصدر نفسه ص ٧

ثم عاد إلى ناقته (١) :

ذاكَ شبَّهتُ ناقتي عنْ يمينِ الرَّ م عنْ بعدَ الكلالِ والإعمالِ

ثم صور تشكيها إليه ، وسألها أن تقصد الممدوح (٢) :

لا تشكَّيْ إليَّ وانتجعي الأسْ ودَ أهلَ النَّدى وأهلَ الفعالِ

وبذلك انتهى إلى الغرض المقصود .

وهجا يزيدَ بنَ مُسْهِر الشَّيْباني ، وافتخر بقبيلته في معلقته ، ومطلعُها (٣) :

ودِّع هُرَيْرةَ إنّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وهلْ تطيقُ وداعاً أيُّها الرَّجُلُ

فبدأها بالغزل ، ثم وصف هريرة وصفاً مادّياً حسّياً ، واستطرد في وصفها إلى تشبيهها بالروضة ، وجعلها أطيبَ من هذه نشراً ، وأجملَ منها منظراً في الأصيل ، ثم ذكر صدودَها عنه ، وانتقل إلى مجلس الغناء والشراب ، فوصف ما فيه من خمر وريحان ، ومَنْ فيه مِنْ ساقٍ ونَدامى وقيان ، ثم انتقل إلى وصف رحلة له ، ثم وصف العارض والبَرْق ، وانتهى إلى تهديد يزيد ، والفخرِ بقبيلته ، وانتصارِها على القبائل .

والأعشى يتبع الغزلَ الخمرَ في عدد من قصائده ، فهو لا يكاد

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٧

(٢) المصدر نفسه ص ٧

(٣) المصدر نفسه ص ٥٥

يتغزّل بمحبوبته ، ويأخذ في وصفِ جمالِها الماديّ وطيبِ رضابها حتى يُشبّه هذا بالخمر ، وهنا ينتقل إلى وصف الخمر ، وتصويرِ مجالس الشراب ، فالغزل والخمر صِنْوان مُتلازمان في شعره ، وهما وسيلتُه إلى خلق الجوّ الفني .

٢ ـ أسلوبه ومعانيه :

ونلحظ في معانيه تأثيرَ بيئاتٍ مُختلفة ولا سِيَّما بيئةُ الجزيرة العربية ، وبيئةُ العراق .

ويدور غزله على وصف جسمِ المرأة ، والتعبيرِ عن إحساسه الظمآن وشهوتِه العارمة .

ويَنْدُر أن نجِد له معنى يَسمو بالمرأة فوقَ عالَم المادة . ويتضمن شعره ذِكْرياتِ شبابه ، وهو يَتغنّى بها مُتلذّذاً لا مُتألّماً .

ويتصف غزله بالرّقة والخُنوثة والخَلاعة ، وهي صفاتٌ أفادها من العراق .

ويصور صاحبته صوراً حسية فيشبهها بالظَّبْية ، ويشبه رُضابَها بخمر مُعتَّقة مازجها ماءُ زُلال ، فيقول (١) :

ظَبْيَةٌ مِنْ ظِباءِ وَجْرَةَ أَدْما ءُ تَسَفُّ الكَبَاثَ تحتَ الهَدَالِ
وكأنَّ الخَمْرَ العَتيقَ مِنَ الاسْ فِنْطِ مَمْزوجَةً بِماءِ زُلالِ

(١) الديوان ص ٥

وصورةُ الظبيةِ تمثِّل البيئةَ البدوية ، والخمرُ المعتقةُ تمثِّل بيئةَ العراق .

ويصور أثرَ الفراق في قوله (١) :

فبانتْ وفي الصدْرِ صدْعٌ لها كصدْعِ الزُجاجةِ ما يلتئِمْ

وتدور خمرياتُه على وصفِ الخمرِ وأدواتِها ، ومجالسِ الشراب والغناء ، وأثرِ الخمرِ في الشاربين .

وأسلوبُه في خمرياته صافٍ رائق ، مُفصَّلٌ على قدِّ المعنى ، مُجانِس له ، وربما كان أسلوبُه فيها أجْودَ أساليبه في بقية الفنون .

ويقصُّ تردُّدَه إلى الحوانيت مع صحبْه ، ومُساومتَه الخمَّارَ على ثمن الخمر ، ويصف فيما بيْنَ ذلك الخمَّارَ وخِباءه ، والخمرَ وأثرَها ، فيبعث الحياةَ في الجو ، ويُحدِثُ الأسلوب القصَصِيُّ (٢) :

فقمْنا ولمَّا يَصِحْ دِيكُنا إلى جَوْنةٍ عِندَ حدَّادِها
تنخَّلَها مِنْ بِكارِ القِطافْ أُزَيْرِقُ آمِنُ إكسادِها
فقلْنا لهُ هذهِ هاتِها بِأدْماءَ في حَبْلِ مُقْتادِها
فقالَ تَزيدُونَني تِسعةً وليْستْ بِعدْلٍ لأنْدادِها

وتشتمل خمرياته على ألفاظ تنقُل أحاسيسَه الشخصية (٣) :

تمزَّزْتُها غيرَ مُستدْبِرٍ عنِ الشُرْبِ أوْ مُنكرٍ ما عُلِمْ

---

(١) الديوان ص ٢٨

(٢) الديوان ص ٥١

(٣) الديوان ص ٢٩

فكلمة (تَمَزَّز) تصور إحساسه بمزازة الخمر .

ويصوّر تلذُّذه بطيب مذاقها (١) :

تُريكَ القَذَى مِنْ دُونِها وَهْيَ دُونَهُ إذا ذاقَها مَنْ ذاقَها يَتَمَطَّقُ

وكلمة (يَتَمَطَّق) تفيد صوتَ اللسانِ حينَ استَمْرأَ طعمَ الخمر .

ويدور مدحه على وصف الممدوح بعِدَّة صفات ، فهو وافِرُ العطاء ، واسِعُ الصدر ، شديدُ البأس ، أخو الحرب ، يَحنو على الضعيف ، ويحمي الجار ، ويَتَحمَّل التَّبِعات .

ويَعنيه من ذلك كرمُه ، فيُبالِغ في وصفه ، ويَعرِض مظاهره ، فيُشبِّهه بنهر الفرات يَفيض ويُزبِد ، وتضطرب أمواجه حتى يتَهدَّد السفينةَ والملاّح بالغرق ، ثم يجعل ممدوحه أعظمَ منه جوداً وأدْوَمَ خيرا . وهذه الصورة تمثل بيئة العراق .

وقد يُشبِّه ممدوحَه بجمل ذَلول دلالةً على نهوضه بأعباء القبيلة (٢) :

وَكُنْ لها جَمَلاً ذَلُولاً ظَهْرُهُ اِحملْ وكُنْتَ مُعاوِداً تَحمالَها

وأسلوبُه في المدح واسع مُفَصَّل ، يَزيد على المعنى ، ويقوم على إيراد الألفاظ الضَّخْمة ، والصور الفَخْمة ، ليملأ بها آذانَ السامعين ونفوسَهم ، وقد يَعتمد على الألفاظ أكثرَ مِمّا يعتمد على الصور ، كقوله

---

(١) الديوان ص ١٤٧

(٢) الديوان ص ٢٥

في مدح قيس بن معد يكرب [1] :

ولكن ربي كفى غربتي ... بحمد الإله فقد بلغن
أخا ثقة عالياً كعبه ... جزيل العطاء كريم المنن
كريماً شمائله من بني ... معاوية الأكرمين السنن
فان يتبعوا أمره يرشدوا ... وإن يسألوا ماله لا يضن
وإن يستضافوا إلى حكمه ... يضافوا إلى هادن قد رزن

فالأعشى جرى في نظام القصيدة ، وفي تصوير المعاني ، وفي صياغة الألفاظ ، على نهج معروف ، واستعمل قوالب محددة ، وقد ضاق الشعراء بهذه السنة الشعرية حتى قال زهير :

ما أرانا نقول إلا معاراً ... أو معاداً من قولنا مكروراً

يريد أن المتقدمين لم يتركوا للمتأخرين شيئاً يقولونه .

وقال عنترة في ذلك [2] :

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم

يريد أن الشعراء ما زالوا ينهجون نهجاً واحداً في قصائدهم .

وأكثر ما يبدو جمود الشعر في وصف الأطلال ، وفي وصف الناقة والطريق ، فالشاعر يكرر في هذه القصيدة ما قاله في تلك .

---

(١) الديوان ص ١٧

(٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . الأنباري . ٢٩٤

وأغلبُ الشعراء وقفوا بالديار ، وبكوها وصوّروا آثارها ، وتسلّوْا عن أحبابهم بالسفر ووصفِ الناقة والطريق ، وانحرفوا في وصف الناقة إلى تشبيهها بحمار الوحش أو الثور الوحشي ، وأسهبوا في وصف هذا ، ثم عادوا إلى الناقة ، وانتهوا إلى الغرض المقصود . وقد غدا ذلك نهجاً تقليدياً ألغى شخصيّاتِ الشعراء ، وحدّد الصّوَرَ وقوالبَها ، فالشاعر إذا بدأ رِحْلَةً ، وأخذ في وصف الناقة والطريق ، أمعن في الوصف ، وتحرّك في قيود ضيّقة ، حتى كاد ينسى نفسه وغرضه المقصود .

٣ ـ خصائصه الفنية :

وقد وجد الدكتور محمد حسين في شعر الأعشى خصائصَ فنية امتاز بها من الشعراء ، كوَحْدة القصيدة ، والاستدارة ، والاستطراد ، والقَصَص (١) :

ولا شكّ في أن القَصَص في خمر الأعشى وغزله يميز أسلوبه من أساليب الشعراء ، وقد عالجه في شعره حتى أتقنه ، وتأثّر به الشعراء مِنْ بعده كأبي نواس .

أما بقية الخصائص فلا نظن أن الشاعر انفرد بها ، فقصيدته متنوعة الموضوع ، والشاعر ينتقل من موضوع إلى آخر انتقالاً مباشراً أو غيرَ مباشر ، وقد يتفق أنْ يطرُق معنى في عدد من الأبيات ، وأن

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية / ظ ، وما بعدها

تجري الأبيات متماسكة مترابطة ، ولكن هذا شيء ، ووحدة القصيدة شيء آخر .

كذلك يتفق أن تتوالى في القصيدة الواحدة مجموعة أبيات ذات معنى عام ، وأن يكون لكل بيت معنى جزئي ، وأن يتم المعنى بالبيت الأخير من أبيات المجموعة ، ولكن هذه الخصيصة الفنية التي يسميها شارح الديوان بالاستدارة يشترك فيها الشعراء جميعا .

والاستطراد نجده عند الأعشى كما نجده عند آخرين ، فالنابغة في معلقته يقف بالديار ، فيصف آثارها ، ثم ينتقل فجاءة إلى وصف ناقته بقوله (١) :

فعدّ عمّا ترى إذ لا ارتجاع له وانم القتود على عيرانة أجد

ثم يشبهها بالثور الوحشي (٢) :

كأنّ رحلي وقد زال النهار بنا يوم الجليل على مستأنس وحد

ويمضي في وصف الثور ، ثم يعود إلى ناقته التي ستبلغه النعمان (٣) :

فتلك تبلغني النعمان إنّ له فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد

ولبيد يقف بالديار ، ويصفها ، ثم ينتقل إلى صاحبته نوار ،

---

(١) مختار الشعر الجاهلي . شرح مصطفى السقا . مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٤٨ طبعة ثانية . ص ١٥٠

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٠

(٣) المصدر نفسه ص ١٥١

فيصور بُعْدَها عنه، وقطيعتَها له، ثم يَتسلَّى عنها بوصف الناقة، ويُشبِّهها تشبيهاتٍ ثلاثة، فهي في شِدَّة جرْيِها، سَحابة تندفع بها الريح مُسرعة، وأتانٌ يطاردها الحمار في الآكام، وبقرةٌ وحشية افترس السَّبُعُ ولدها، فقامت تصيح وتبحث عنه، وبعد أن ينتهي من وصف البقرة، يعود إلى ناقته التي يَقضِي بها حاجته عندَ التِماعِ السَّراب (١):

فتلكَ إنْ رَقَصَ اللَّوامِعُ بالضُّحَى واجْتابَ أرْدِيَةَ السَّرابِ إكامُها
أقضِي اللُّبانَةَ لا أُفَرِّطُ رِيبَةً أوْ أنْ تلوم بحاجةٍ لَوَّامُها

ثم يدع لبيدٌ ناقتَه، ويفرغ للفخر.

فالأعشى يُشاكِل الشعراء في تلك الخصائص، ويَنفرِد عنهم بالاسلوب القَصَصي، ولا يكاد يُجاريه فيه غيْرُ امرئ القيس.

فهو في غزله يَقُصُّ ما وقع له مع صاحبته، فقد أرسل اليها رسولا لِيُحدِّثها بأمر هواه، فتأبَّتْ عليه، ثم لانتْ بعدَ قسوة، وضرَبت له موعِداً بعد أنْ دلَّتْه على الطريق، ثم دخل عليها ليلا، وقضى منها وَطَرَه، وصوَّر ما كان بينها من عَبَثٍ ومُجُون (٢).

وربما كان أسلوبُه القَصَصِيُّ في الخمريات أظهرَ منه في الغزل، فهو يتحرك مع صَحْبه في جوٍّ طلْق، ويُحدِّد الزمان والمكان، ويُصوِّر دقائقَ الأشياء، فهم يَسْرون إلى الحانوت، ويُساوِمون الخمّار

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٥٧١ ـ ٥٧٢

(٢) ديوان الأعشى الكبير. المطبعة النموذجية ص ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٥

على ثمن الخمر ، والخمّار يُغالي فيه ، لأنه يعرف جودة خمره ، ويحسّ رغبة الشَّرْب فيها ، ثم يتمّ البيع والشراء وينقُد الخمّارُ دراهمَهم في ضوء السراج ، ويجلسون للشراب ، فيقوم ويصبُّ لهم قهوة تسكُن بعد إرْعاد ، وتتكشّف عن حُمْرة بعد إزباد (١) .

٤ ـ موسيقا شعره :

ولِشِعْرِه رَنَّةٌ لا نحِسُّ مِثْلَها في الشعر الجاهلي ، ويَغلِب على الظن أنه أفادها من تَرَدُّده إلى العراق ، فقد ذكرتْ كتب الأدب أنه حضر مَجالس الخمر ، واستمع لِلقِيان وتوقيعهن على العُود والمِزْهر والصَّنْج ، ولم يَكتفِ بشهود تلك المَجالسِ وحسْب ، وإنما عَقَد مثلَها في اليمامة ، فقد كان يَشتري الخمرَ من العِباديين في الحيرة ، ويعود إلى مَنفوحة مُصطَحِباً قينة لتُغنّيه في مجالسه الخاصة في بيته على مَرْأى ومَسْمَع من الفتيان ، وربما تَعاطَى الضَّرْب على الصنج ، ووقَّع عليه شعرَه ، وهو يُنشِده ، فسُمّي صَنّاجةَ العرب .

وتفيد كتبُ الأدب أنه لُقِّب بالصناجة لجَوْدة شعره ، ولكن هذا لا يُوضِّح سببَ تلقيبه به ، وإذا رَجَعْنا في شرحه إلى قواميس اللغة ، كلسانِ العرب ، تَبيَّن أن الصَّنَّاجة هو اللاعب بالصنج ، وأن الصنج الذي عرفته العرب هو ما يكون من دَفّ ، أو يُتَّخَذ من صُفْر يُضرَب أحدُهما بالآخَر .

---

(١) ديوان الأعشى الكبير . المطبعة النموذجية ص ٦٩ ـ ٧١

ويُرَجِّحُ أن يكون الأعشى قد لَعِب بالصنج ، وَوَقّع عليه شعره ، فقد جاء في كتاب الأغاني قولُه (١) :

« وكان يُغَنّى في شعره فكانت العربُ تُسَمِّيه صَنّاجةَ العرب » بيناء الفعل (يُغَنّى) للمجهول ، ويمكننا أن نقرأ القولَ ببناء الفعل للمعلوم .

وإذا سَلَّمْنا بأن الأعشى غَنّى في شعره كان معنى هـذا أنه لم يُنشِد الشعر كما أنشده الجاهليون ، وإنما أنشده مُوَقِّعاً إيّاه على آلة طَرَب ، ولعلّ الصنجَ أبسطُ الآلات تركيبا ، وأكثرُها مُوافقةً لتوقيع الانشاد .

على أنّ الموسيقا ركن أساسيٌّ في الشعر ، والشعرُ لا يكون حقاً إلا إذا توافرت فيه الموسيقا أولاً ، والصُّوَرُ المنوية ثانيا ، والصور إنما تُعرَض في إطار من الموسيقا الشعرية التي تتألف من موسيقا اللفظ والوزن والقافية ، وهذه العَناصِرُ مُندَمِجٌ بعضُها في بعض بحيثُ يَصعُبُ الفصلُ بينها .

فأمّا اللفظ فله موسيقا خاصّةٌ تُوحِي إلى النفس بمعانٍ فوقَ معاني الألفاظ ذاتها ، فكلُّ كلمةٍ يُعبِّرُ عنها بأصوات حروفها وَتعاقُبُ الكلماتِ على نحْوٍ خاصٍّ في البيت يُحدِث موسيقا اللفظ ، وهي تموّجاتٌ صوتية تختلف ارتفاعا وانخفاضا ، وشدة ولينا ، وطولاً وقصرا .

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٠٩

ودونك مثالاً لموسيقا اللفظ في قوله يمدح الأسودَ بنَ المنذر[1] :

يَهَبُ الجِلَّةَ الجَراجِرَ كالبُســـتانِ تَحنو لِدَرْدَقٍ أطفالِ
والبَغايا يَرْكُضْنَ أكْسِيَةَ الاضْـريجِ والشَّرْعَبِيَّ ذا الأذْيالِ
وَجِياداً كأنَّها قُضُبُ الشَّوْحَطِ يَحْمِلْنَ شِكَّةَ الأبْطالِ
والمَكاكيكَ والصِّحافَ مِنَ الفِضَّـةِ والضَّامِزاتِ تَحتَ الرِّجالِ

ففي البيت الأول كلماتٌ لها جَلَبة وضجيج كالجِلَّة والجَراجِر والدَّرْدَق ، وكلماتٌ خافتةُ الجَرْسِ كمثل (يَهَبُ) و (البُستان) و (تَحنو) .

وفي البيت الثاني موسيقا مُطَّرِدةُ النَّغَماتِ إلاّ ما أحدثَتْه كلمةُ الاضريج من ضجيج .

وموسيقا البيت الثالث تَرِق عن موسيقا الثاني ، لكنها تختلف شدةً ولينا فيما بين (الشَّوْحَط) و (يَحْمِلن) و (شِكَّة) .

وموسيقا البيت الرابع تَطَّرِد شدة ، وتَختلِف طولاً وقِصَرا .

ومهما تَكُنْ موسيقا اللفظِ والأبياتِ فانها تبدو ملائمةً لموضوع المدح ، فأصواتُ المقاطع ، وأصواتُ الحروف من مثل الجيم والدال والراء والسين والشين والصاد والضاد والقاف ، وأصواتُ الكلمات المتعاقبة ، توحي إلى النفس بأمور نُحِسّها ، ولا نَتَبَيَّنُها .

وفي شعره موسيقا لفظية مُطَّرِدة النغمة ، تَوَلَّدَتْ من تَكْرار

(1) الديوان ص ١٠ ـ ١١

مقاطيعَ وتراكيبَ واحدة ، وكلماتٍ متشابهة في وزنها وتركيبها وبنيتها ، ومن شأن هذا كلّه أن يحدث نغمة واحدة كما في قوله [1] :

فقامَ فصبَّ لنا قهوةً تسكّنُنا بعدَ إرعادِها
كُمَيْتاً تكشَّفُ عن حُمْرةٍ إذا صرَّحتْ بعدَ إزبادِها
كحوصلةِ الرَّألِ في دنِّها إذا صوّبتْ بعدِ إقعادِها

ففي الأشطر الثانية تتكرر كلمتا (إذا) و (بعدَ) ، وتتفق كلمتا (صرَّحتْ) و (صوّبتْ) وزنا ، كما تتفق القوافي وزنا ، وتتشابه في أغلب الحروف . وكل هذا يحدث صوتا موسيقيا قويا .

وقد تنبَّه القدماء إلى ما في شعرِ الأعشى مِنْ حركة وجلبة وضوضاء ، وهي ترجع إلى أسباب .

فهو يكرر الحرفَ الواحدَ في الشطر الواحد مرتيْن [2] :

تعاطِي الضَّجيعَ إذا أقبلتْ بُعَيْدَ الرُّقادِ وعِنْدَ الوَسَنْ
صَليفيَّةً طيِّباً طعْمُها لها زَبَدٌ بيْنَ كُوبٍ ودَنّْ

أو يكرر الحرفَ ثلاثَ مرات في الشطر [3] :

وشاء إذا شئْنَا كميش بمِسْعَر وصهباء مِن باداً إذا ما تصفق

---

(١) الديوان ص ٥٢
(٢) الديوان ص ١٥
(٣) الديوان ص ١٤٧

أو يكرر حرفيْن مُختلِفيْن مراتٍ في البيت (١) :

وَقَدْ أرَاها وسْطَ أتْرابِها في الحَيِّ ذي البَهْجَةِ والسَّامِرِ
كَدُمْيَةٍ صُوِّرَ مِحْرَابُها بِمُذْهَبٍ في مَرْمَرٍ مَائِرِ

أو يكرر كلمة واحدة (٢) :

فَبانَتْ وفي الصَّدْرِ صَدْعٌ لها كَصَدْعِ الزُّجاجَةِ ما يَلْتَئِم

أو يكرر كلمتيْن (٣) :

تُريكَ القَذَى مِنْ دُونِها وَهْيَ دُونَهُ إذا ذاقَها مَنْ ذاقَها يَتَمَطَّقُ

أو يكرر كلمتين من وزن واحد ، متشابهتين في نوع حروفها وعددها (٤) :

غَرَّاءُ فَرْعاءُ مَصْقُولٌ عَوارِضُها تَمْشِي الهُوَيْنا كما يَمْشِي الوجِي الوَجِلُ

وقد تَتَوَلَّد الجَلَبة من تشديد حرف أو تَوَالِي حرف واحد في بنية الكلمة (٥) :

نازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحانِ مُتَّكِئاً وَقَهْوَةً مُزَّةً راووقُها خضِل

وقد تتولَّد من تَكْرار مَقطَع واحد في الكلمة (٦) :

يَسْعَى بها ذُو زُجاجاتٍ لَهُ نُطَفٌ مُقَلِّصٌ أسْفَلَ السِّرْبالِ مُعْتَمِلُ

---

(٢) الديوان ص ١٠٤
(٢) الديوان ص ٢٨
(٣) الديوان ص ١٤٧
(٤) الديوان ص ٤٢
(٥) الديوان ص ٤٥
(٦) الديوان ص ٤٥

وأما موسيقا القافية فانها تتمم موسيقا الوزن ، ولها وقع حسن في السمع ، ونلحظ في دراسة القوافي أن الشاعر تجنب الصعبة منها ، واختار القوافي الملائمة لموسيقا الوزن .

وقد دل اختياره لقوافيه على قريحة صافية وذوق موسيقي ، ذلك أن اختيار القوافي أصعب من اختيار الأبحر ، فأما الأبحر فمحدودة العدد ، وأما القوافي فلا حصر لها . وعلى قدر غنى لغة الشاعر واحساسه ، وحسن ذوقه ، يكون توفيقه في اختيار قوافيه .

ويبدو حسه الموسيقي في قوله (١) :

خالط القلب هموماً وحزن ... وادكاراً بعد ما قيل اطمأن
فهو مشغوف بهند هائم ... يرعوي حيناً وأحياناً يحن
بلعوب طيب أردانها ... رخصة الأطراف كالرئم الأغن
خلقت هند لقلبي فتنة ... هكذا تعرض للناس الفتن

فالقافية هنا متممة للبيت ، مندمجة في معناه ، مكملة لوزنه ، ولها بعد ذلك رنين في الأذن ، أشبه برنين الوتر والصنج ، وربما حمل الرنين أصداء الموسيقا التي استقرت في نفس الشاعر . وهكذا اجتمع للبيت عذوبة البحر ، ورنة القافية .

ونسمع رنة عالية سريعة في قوله (٢) :

---

(١) الديوان ص ٢٢٧

(٢) الديوان ص ٣٤ ـ ٣٥

أأزْمَعْتَ مِنْ آلِ لَيْلَى ابْتِكارا   وَشطَّتْ على ذي هوىً أنْ تَزَارَا
وبَانَتْ بهـــا غَرَبَاتُ النَّوَى   وَبُدِّلْتُ شَوْقاً بِها وادِّكارَا

فالبحر هو المتقارب ، ويمتاز بنغمة سريعة ، وَ نبْرة واضحـة ، ورنةُ الراءِ هُنا أقْصَرُ أمَداً من رنة النون في الأبيات السابقة .

ونسمعُ رنَّةَ قصيرة خافِتة حُلْوة في قوله (١) :

وَشَمولٍ تَحسبُ العَيْنُ إذا   صُفِّقَتْ وُرْدَتَها نوْرَ الذُّبَحْ
مِثْلَ ذَكْي المِسْكِ ذَاكٍ ريحُها   صَبَّها السَّاقِي إذا قيلَ تَوَحْ
تَحسبُ الزِّقَ لَدَيْها مُسْنَداً   حَبَشِيّاً نامَ عَمْداً فانْبَطَــحْ

ونسمع رنة عذبة صافية في قوله (٢) :

مِنْ دِيارٍ بالْهَضْبِ هَضْبِ القليبِ   فاضَ ماءُ الشُّئُونِ فَيْضَ الغُرُوبِ
أخْلَفَتْني بهِ قُتَيْلَةُ مِيعا   مِ دي وكانتْ لِلْوَعْدِ غيرَ كَذُوبِ
ظَبْيَةٌ مِنْ ظِباءِ بَطْنِ خُسَافٍ   أمُّ طِفْلٍ بالْجَوِّ غيرِ رَبيبِ

فالرَّوِيُّ الباءُ هَيِّنُ الوَقْعِ في السَّمْعِ ، ينساب إلى النفس انسيابا فلا يُحدِث جلبة .

ونسمع رنَّة قصيرة قوية ملائمةً لِنَغَم المتقارب السريع القصير (٣) :

---

(١) الديوان ص ١٦٢ ــ ١٦٣
(٢) الديوان ص ٢١٨ ــ ٢١٩
(٣) الديوان ص ٢٨

أَتَهْجُرُ غانِيَةً أَمْ تُلِمّْ أَمِ الحَبْلُ واهٍ بها مُنْجَذِمْ
فَبانَتْ وفي الصَّدْرِ صَدْعٌ لها كَصَدْعِ الزُّجاجَةِ ما يَلْتَئِمْ

تلك صُوَرٌ من القوافي اختارها الشاعر ، ودَعَمَ بها موسيقا الأبْحُرِ التي نظم عليها قصائدَه .

والأبحر التي اختارها للنظم هي الطويلُ ، والمتقارب ، والخفيف ، والوافر ، والبسيط ، والكامل ، ومجزوءه ، والرمل ، والسريع ، والمنسرح ، ومجزوء الرجز .

والبحرُ الذي نظم عليه أَغْلَبَ شعره هو الطويلُ ، ويَليه المتقارب ، فالوافر ، فالخفيف ، فالبسيط ، فالكامل ، فمجزوءه ، والأبحر الخمسة الأولى نَظَمَ عليها بنسبة واحدة .

أما أَبْحُرُ الرَّمَلِ والسَّريع والمُنْسَرِح فقد نظم عليها بِقِلَّة ، ونظم قصيدتَيْن على كل من الرَّمَل والسريع ، وقصيدةً على المُنْسَرِح .

ويَعنينا من تلك الأبحرِ ثلاثةٌ : الطويلُ والمتقاربُ ومجزوءُ الكامل .

فأما الطويل فقد نظم عليه الشعراءُ كثيرا .

وأما المتقارب فهو بحر سَهْل ذو نَغَم مُطْرِب ، يمتاز بشيء من الشدة والعُنْف ، وقد نظم عليه الأعشى تِسْعَ قصائد ، ونَغَمُه يُقارِب رنينَ الصَّنْج والمزهر .

وأمّا مجزوءُ الكامل فيدل على أن الشاعر جَهِد في أن يَستخرِج أوزاناً جديدة ، وهذا البحرُ مُحَرِّكٌ مُرَقِّص .

٥ - منزلته :

افتنّ الرواة والأدباء في تقديم شعراء الجاهلية بعضهم على بعض، فقال يونس النحوي لمن سأله عن أشعر الناس (١) : « امرؤ القيس إذا غضب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب » .

ومعنى هذا أن الشعراء الأربعة يؤلفون الطبقة الأولى، ولكنهم يختلفون فيما بينهم إجادة لهذا الفن أو ذاك، فامرؤ القيس عرف بوصف الخيل والصيد، والنابغة بالاعتذار، وزهير بالمدح، والأعشى بوصف الخمر .

غير أن امرأ القيس لم يعرف بوصف الخيل والصيد وحسب، وإنما عرف بالغزل واللهو والمجون، والنابغة لم يشتهر باعتذارياته وحسب وإنما اشتهر بالوصف والمدح والهجاء، وزهير أجاد المدح كما أجاد الوصف والغزل والهجاء، والأعشى قال في الخمر كما قال في الغزل والمدح والفخر .

وعرف الأعشى بأنه (٢) « أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم »، وهذا القول يؤيد ما ذهبنا إليه من أنه يعد بين المشهورين من شعراء الجاهلية .

وشهد حسان لقبيلته بالشعر فقد جاء في الأغاني (٣) « أن حسانا

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٠٨

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٨

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٩

سُئِل مَنْ أشعَرُ الناس ؟ فقال : أشاعِرٌ بعينه أم قبيلة ؟ قالوا : بل قبيلة . قال : الزُّرْقُ من بني قَيْس بنِ ثَعْلَبة ، وهذا القولُ يدل على أن الشعرَ أصيلٌ في قبيلة الأعشى .

ومِنَ الرواةِ مَنْ قدَّم الأعشى لِخَصيصة في قصائده ، ولِتَصَرُّفه في فنون من الشعر ، فقال أبو عبيدة (١) : « مَنْ قدَّم الأعشى يَحْتَجُّ بكثرة طِواله الجِياد ، وتَصَرُّفه في المديح والهجاء وسائرِ فنونِ الشعر وليس ذلك لِغَيْره » وهذا يَعني أن الأعشى قُدِّم على غيره من شعراء الجاهلية لِطُولِ قصائده ، ولا جادته مُخْتلِفَ الفنون .

وقَدَّمه بعضُ الرواة والأدباءِ من غيرِ أن يُبَيِّنوا سببَ تقديمهم له ، فقد كان أبو عَمْرِو بنُ العلاء يُقدِّمه (٢) ، ويُوصِي الناس بشعره ، فيقول (٣) : « عليكم بشعرِ الأعشى فاني شَبَّهْتُه بالبازي يَصيد ما بينَ العَنْدَليب إلى الكركي » ، ويَعْنِي أبو عمرو بقوله أن الأعشى امتاز بتصرفه في فنون الشعر .

وقَدَّمه حماد على جميع الشعراء (٤) ، وحينَ سأله المنصورُ عن ذلك قال : نعم « ذلك الأعشى صَنَّاجُها » .

وذهب بعضهم إلى أنه أستاذُ الشعراء في الجاهلية ، وجرير أستاذُهم

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٠٩
(٢) المصدر نفسه ص ١١٠
(٣) المصدر نفسه ص ١١٠
(٤) المصدر نفسه ص ١١٠

في الاسلام ، فقد قال يحيى بن الجَوْن العَبْدِيُّ راويةُ بشار (١) : «نحنُ حاكةُ الشعرِ في الجاهلية والاسلام ، ونحن أَعْلَمُ الناس به ، أعشى بنُ قيسِ بنِ ثَعْلَبَة أستاذُ الشعراء في الجاهلية ، وجريرُ بنُ الخَطَفي أستاذُهم في الاسلام» .

وذكر ابن سلاّم (٢) : «أن علماءَ البصرةِ كانوا يُقَدِّمون امرأَ القيس بنَ حُجْر ، وأهل الكوفة كانوا يُقَدِّمون الأعشى ، وأن أهلَ الحجاز كانوا يقدمون زهيرا» .

فأمّا تقديمُ أهلِ البصرة والكوفةِ لامرىء القيس والأعشى فَسببُه أن كثرةَ الناس فيها كانت يَمَنِيَّةً رَبَعِيَّةً ، وقد كان امرؤ القيس من اليمانية ، والأعشى من ربيعة .

وأمّا تقديمُ زهير في الحجاز فَسببُه أن الشاعر كان متصلاً بهذا الاقليمِ اتصالَ مَوْطنٍ وَنسَبٍ ولُغَةٍ وسياسة (٣) .

وأشار حمّاد إلى إجادة الأعشى في وصفِ الخمر ، فقد سُئِل عن أَشْعرِ العرب ، فأجاب من شعره متمثلاً بقوله (٤) :

نازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحانِ مُتَّكِئاً وقَهْوَةً مُزَّةً راوُوقُها خَضِلُ

---

(١) الأغاني ج ٩ ص ١١٢

(٢) طبقات الشعراء . دار المعارف ص ٤٤

(٣) في الأدب الجاهلي ص ٢٥٣ - ٢٥٤

(٤) الأغاني ج ٩ ص ١١٢

وهي إشارة إلى فن الخمر الذي أتقنه الشاعر أيَّما إتقان .

والحقُّ أن الشاعر أجاد هذا الفنَّ حتى عدَّه الرواة والنقادُ شاعرَ الخمرِ في الجاهلية ، والأخطلَ شاعِرَها في الاسلام ، وأبا نواس شاعرَها في العصر العباسي .

لقد أكثر الأعشى من وصف الخمر وأدواتها ، وافتنَّ في تصوير مجالِسِها ، ووَصْفِ أَثَرِها في النفس ، وأتى بصور دقيقة متنوعة حملتْ آثار البيئات الحضرية .

واتَّسَمَتْ خمريَّاته بالسهولة والسلاسة والرقة ، وعبَّرتْ عن عاطفته ومزاجه .

وقد أشار القدماء إلى تأثيره فيمن تلاه من الشعراء أمثالِ الأخطل وأبي نواس ، وساقوا الأمثلة على ذلك .

فالأعشى يُشبِّه زِقَّ الخمر بِحَبَشِيٍّ نام مُنبَطِحاً على الأرض .

تحسبُ الزِّقَّ لديْها مُسنَداً   حبشيّاً نامَ عمْداً فانبَطَحْ

والأخطل يُفيد من صورة الأعشى فَيُشبِّه زِقاق الخمر برجال من السُّودان عُراة :

أناخُوا فجرُّوا شاصياتٍ كأنَّها   رِجالٌ من السُّودانِ لمْ يتسرْبلُوا

والأعشى يصور قذْرةَ ريحِ الخَمْرِ على شِفاه المزْكوم :

وأدْكَنَ عاتِقٍ جحْلٍ سِبَحْلٍ   صَبَحْتُ بِراحِهِ شَرْباً كِراما

مِنَ اللاتي حُمِلْنَ على الرَّوايا   كريحِ المِسْكِ تستَلُّ الزُّكاما

ويقول الأخطل في هذا المعنى فيُقَصِّر عن بلوغ شأوِ الأعشى :

وإذا تعاوَرَتِ الأكُفُّ زُجاجَها نفحَتْ فنالَ رِياحَها المَزْكُومُ

ويقول الأعشى في وصف صفاءِ الخمر :

تُريكَ القَذَى مِنْ دُونِها وَهْيَ دُونَهُ إذا ذاقَها مَنْ ذاقَها يَتَمَطَّقُ

فيُقَصِّر عنه الأخطل في قوله :

ولقد تُباكِرُني على لذاتها صَهْباءُ عاليةُ القَذَى خرطومُ

ويقول الأعشى في إدمانه الخمر :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ على لَذَّةٍ وأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنها بِها

فيُوسِّع أبو نواس المعنى بقوله :

دَعْ عَنْكَ لَوْمي فانَّ اللَّومَ إغْراءُ وداوِني بالتي كانَتْ هِيَ الدَّاءُ

وذلك يدل على سَبْقِ الأعشى في مِضمار الخمر ، فهو الذي فتح للشعراء بابَ القولِ في هذا الفن ، وَجرى الشعراءُ على غِرَارِه فيما بعد .

فالأعشى كان من قبيلة فُطِرَتْ على قول الشعر ، وقد تصرَّف في مُختلِف الفنون ، فَغَزُرَ شعرُهُ ، وطالت قصائده ، وعُرِفَ بالغزل والخمر والمدح والفخر ، واعتُبِرَ أحدَ الشعراء الأعلامِ في العصر الجاهلي .

وانفرَدَ بالاجادة في وصف الخمر حتى عدَّهُ الرواةُ والنقادُ شاعرَها في الجاهلية ، وَشهدوا له بتأثيره فِيمَنْ تلاه من شُعرائها كالأخطل وأبي نُواس في العصريْن الأُمَوِيِّ والعبَّاسي .

الفهارس

١ - فهرس الأعلام والقبائل
٢ - فهرس المواطن والبلدان
٣ - فهرس القوافي
٤ - فهرس المصادر والمراجع
٥ - فهرس الموضوعات

١

فهرس الأعلام والقبائل

الأخطل ٣ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٥٧ ،
٥٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥
أسد بن ربيعة ٧٩
الأسود بن المنذر ١١ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ٩٥
الأسود العنسي ١٠ ، ١٢ ، ٦٤
الأشعث بن قيس الكندي ٦٤
الأعشى (ميمون بن قيس) ٣ ، ٤ ،
٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ،
١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ،
٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،
٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٠ ،
٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥١ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ،
٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٩ ،
٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١ ،
١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥
امرؤ القيس ٢١ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٤١ ،
٧١ ، ١٠١ ، ١٠٣
أمية بن أبي الصلت ٥
الأنباري ٢٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤
البستاني (فؤاد أفرام) ٧
بشار ١٠٣
أبو بصير (انظر : الأعشى)
بكر بن وائل ٦ ، ٨ ، ٩
بشر بن عمرو بن قرشة ٢١
ابو تمام ٧٧
تميم (قبيلة) ٨ ، ٢٤
ثمود ١٠
ثعلب ٢٧

جُبيَشْرة ٨٤
جديس ٨ ، ١٠
ابن جُرهم (المضاض) ٢٤
جرير ١٠٢ ، ١٠٣
ابن جسر ٧
جفنة (قبيلة) ١٧
جِهِنَّام (شاعر من بكر) ٩
الحارث بن عوف ٧٦
ابن حَرْب ٢٥
حسان بن ثابت ١٧ ، ٤٢ ، ١٠١
حسان بن عمرو بن مرشد ٢٠
الحطيئة ١٣
حماد ١٠٢ ، ١٠٣
حِمْيَر ٦٤
حنيفة (قبيلة) ٢٤
خُلَيْدة (فتاة) ٢١
الخليع ٥٧ ، ٦١
داود (النبي) ٦٧ ، ٧٢
ذُهل بن شيبان ٧٧
دودان ٦٧
ذبيان ٦٧ ، ٧٦
الرباب ٦٧
ربيعة (قبيلة) ٦ ، ٦٤ ، ١٠٣
الرسول (ص) ١٢ ، ١٣ ، ١٤
زاهر بن سيار ٧٧
زهير بن أبي سلمى ٣ ، ٦ ، ٦٢ ،٧١
٧٥ ، ٧٦ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٣
زياد بن معاوية (انظر : النابغة)
أبو سفيان ٨ ، ١٣ ، ٦٢
ابن سلام ٢١ ، ٣١ ، ١٠٣
سلامة (ذو فائش) ١٠ ، ٦٣
السموأل ١٠
سَيّار (قبيلة) ٧٧
شاكر (احمد محمد) ٧
الشعبيّ ٣٠
صناجة العرب (انظر : الأعشى)
ضبيع ٧٧
طرفة بن العبد ٦ ، ٢٢ ، ٨٢
طَسْم ٨ ، ١٠
طه حسين (الدكتور) ١١ ، ١٢
٦١ ، ٦٤
عاد ١٠
بنو عامر (قبيلة) ١٢

عامر بن الطُّفيل ١٢ ، ٦٤
العباد ١١
عبد المدان ١٠
عبد القيس ٨
عَبْس ٧٧
أبو عبيدة ٨٢ ، ١٠٢
عدي بن زيد ١٧ ، ٢٠ ، ٤٥،٤٢ ، ٤٧
علقمة بن عبدة ٤٢
علقمة بن عُلاثة ١٢ ، ٦٤
عنترة ٤٤ ، ٤٥ ، ٨٩
عَنَزَة (قبيلة) ٩ ، ٢٩
ابو عمرو بن العلاء ١٠٢
غسَّان ٢٣
الغساسنة ١٥ ، ٦٢
الفُرس ١٠ ، ١٥ ، ١٩
قابيا (قبيلة) ٥١ ، ٥٣
قُتَيْلَة ٢٩ ، ٣٣ ، ٩٩
ابن قتيبة ٧
قتيل الجوع (لقب أبي الأعشى)
قريش ٢٦ ، ٦٢
قشير بن كعب ٧٩
قُصَيّ ٢٤
قيس بن ثعلبة ٧٧،٧٩،١٠٢،١٠٣
قيس بن جندل (أبو الأعشى) ٨ ، ٩
قيس بن معد يكرب ١٠، ٢٤،٢٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢،٧٣ ، ٨٣ ، ٨٩
كسرى ١٥ ، ٥٨ ، ٦٣
كعب بن سعد ٧٧
كلب (قبيلة) ١١
كِنْدة ٦٤ ، ٧٣
لبيد ١٣ ، ٢٥ ، ٤٤ ، ٩١ ، ٩٢
لويس شيخو (الأب) ١١،١٧،٢٣
المحلَّق الكلابي ١٠ ، ١١ ، ٦٢
محمد حسين (الدكتور) ٩٠
محمد رسول الله ٢٦ ، ٦٢ ، ٦٤
محمد حسين (الدكتور) ٨
محمود محمد شاكر ٢١
مسعود (قبيلة) ٧٩
المُسَيَّب بن عَلَس ٩
مُضَر ١٤ ، ٦٤

المناذرة ١٥ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٦٢
المنصور ١٠٢
مَيْشاء ٣٢
النابغة ٧ ، ١٧ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨
٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٩١ ، ١٠١
النجاشيّ ١٦ ، ٦٣
النعمان بن المنذر ١١ ، ١٨ ، ٢١
٦٤ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٩١
نَوار ٤٥ ، ٩١
أبو نواس ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٧ ، ٥٨
٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٩٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥
هِزّان (قبيلة) ٩ ، ٢٩
هرم بن سنان ٦٢ ، ٧٦
هريرة ٢٠ ، ٢١ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤
٣٦ ، ٧٨ ، ٨٥
ابن هشام ١٤
هُمام ٧٧
هَوْذة بن علي ٢٤ ، ٦٤ ، ٧١
ورقة بن نوفل ٦
الوليد بن يزيد ٥٧ ، ٦١
يحيى بن الجَوْن ١٠٣
يحيى بن متى ٢٥
يزيد بن مسهر الشيباني ٧٧ ، ٧٩
٨٠ ، ٨٥
يونس النحوي ١٠١

٢

فهرس المواطن والبلدان

الأبلق (حصن السموأل) ١٠
أثافت (قرية في اليمن) ١١
أرض النبيط (موضع) ٦٣
أورِيشَلَم ١٦ ، ٦٣
بابل ٤٩
البحرين ٧ ، ٨
البصرة ٧١ ، ١٠٣
بطن خُساف ٩٩
بيروت ١١ ، ١٢ ، ١٧
الجزيرة العربية ٥ ، ١١ ، ١٨ ، ٨٦
الحجاز ٧ ، ١٠ ، ١٥ ، ٦٣ ، ٧١
١٠٣
حضرموت ١٦
حمص ١٦ ، ٦٣
الحيرة ١١ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٠
٣١ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٦٣ ، ٩٣
الخليج الفارسي ٧ ، ١١
الشام ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٦٣
السودان ٥٧ ، ١٠٤
الطائف ١٦
العراق ٨ ، ١١ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ،
١٩ ، ٢٠ ، ٣١ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ ،
٦٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٣
العجم ٦٣
العرض ٧ ، ٨
عكاظ ٥ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦
عُمان ١١ ، ٦٣
فارس ١١ ، ١٩ ، ٢٠
الفُرات ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٥
قران ٧

قريش ١٣
الكوفة ٦٤ ، ٧١ ، ١٠٣
الكعبة ٢٤ ، ٨٠
المدينة المنورة ١٤
منفوحة ٧ ، ٨ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٧ ، ٩٣
مكة ١٤ ، ١٦ ، ٦٢
النبيط (موضع) ١٦
نجد ٧ ، ١٥ ، ١٨ ، ٦٣
نجران ١٠ ، ١٦ ، ٢٣ ، ٦٤
هضيب القلب (موضع) ٩٩
وَجرة ٨٧
اليمامة ٧ ، ٨ ، ١٥ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٩٣ ،
اليمن ٧ ، ١١ ، ١٦ ، ٦٣ ، ٦٤
يوم العين ٨١

* * *

٣

فهرس القوافي

ء

ءُ

إعفاءُ ٥٨
الداءُ ٤٦ ، ٥٨ ، ١٠٥
مرآءُ ٥٨
لآلاءُ ٥٨
الماءُ ٥٨
وأضواءُ ٥٨

ءَ

عنَائِكا ٧١

ب

بُ

تُضْرَبُ ٢٥
تَضْرِبُ ٤٩
تُقْطَبُ ٤٩
كوكبُ ٧٥

بِ

رَبيبِ ٩٩
الغروبِ ٩٩
كذوبِ ٩٩
أعنابِها ١١
بأسبابِها ٢٩
جلبابِها ٢٩
لألهى بها ٢٩

ت

تُ

أذاتُها ٤٨

نَشَواتُها ٤٨

ح

حْ

تَوَحْ ٥٠ ، ٩٩
الذَّبْحْ ٤٩ ، ٩٩
الرَّبَحْ ٥٢
فانبطحْ ٩٩ ، ١٠٤
كَسَحْ ٥٢

د

دَ

باردا ٧١
حاردا ٧٣
المُسَهَّدَا ١٣
المقاليدا ٧٤

دِ

أُجُدِ ٩١
البَرْدِ ٦٦
البَعَدِ ٩١
بالجَرَدِ ٦٦
بالزَبَدِ ٦٩
تُزْبِدِ ٤٣
تَشَدَّدِ ٤٣
تَصْطَدِ ٤٢
الجُدُدِ ٦٦
دونَ غدِ ٧٠
عُوَّدِي ٤٣
فازدَدِ ٤٢
الليدِ ٦٦
المتجردِ ٤٣
المتوَرِدِ ٤٣
مَصادِ ٣٨
المُعَبَّدِ ٤٣
المُعَمَّدِ ٤٣
والخَضَدِ ٦٩
والنَجَدِ ٧٠
وَمُتْلِدِي ٤٣
وَمُجَسَّدِ ٤٣
وَحَدِ ٩١
إرعادِها ٥٠ ، ٥٢ ، ٩٦
إزبادِها ٥٠ ، ٩٦
إقصادِها ٥٢

إقمادِهــا ٩٦
إكسادِها ٢٢ ، ٥٣ ٨٧
بأجسادِها ٣٧
بتنقادِها ٢٣ ، ٥٣
بفرصادِها ٥٠
جُدّادِها ٢٣ ، ٥٣
حدادِها ٢٢ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٨٧
رقّادِها ٣٧
شهادِها ٢٣ ، ٥٣
فيُملى بها ٢٩
لأندادِها ٢٣ ، ٥٣ ، ٨٧
مقتادِها ٢٣ ، ٥٣ ، ٨٧
ميعادِها ٣٧
وإيقادِها ٣٧
وكنادِها ٣٧
ومُستنادِها ٣٧

ـر

ر

ادّكارا ٩٩
انحدارا ٣٨
تُزارا ١٨ ، ٣٨ ، ٩٩
جؤارا ٢٤
حمارا ٦٠
دبورا ٧٢
دكورا ٧٢
زمهريرا ٤٠
صِفارا ٣٨
الغُبارا ٢٤
فتورا ٤٠
فَعيرا ٧٢
فنــارا ٧٢
القتيرا ٧٢
القمارا ٤٧
مكرورا ٨٩
وادّكارا ٣٨
وصارا ٢٤
إقتارَها ١٩ ، ٥٢
إمرارَها ١٩ ، ٥٢
سوّارَها ١٩ ، ٥٢
فوّارَها ١٩ ، ٥٣
مختارَها ٥١ ، ٥٣

رِ

تاجرِ ١٨ ، ٤١
الضامرِ ٤٠
قابرِ ١٩ ، ٣٩
مائرِ ١٨ ، ٤١
الناظرِ ١٨ ، ٢١
والسَّامرِ ١٨ ، ٤١ ، ٩٧
مائرِ ٩٧

س

سُ

فارسُ ٥٨
الفوارسُ
القلانسُ ٥٨

ع

عِ

الاصبَعا ٢٠
صنعَا ٢٤
مُضرَّعنا ١٩
وأربَعا ١٩
يوضَعا ٢٠

عُ

راضعُ ٩
واسعُ ٧٥

ق

قَ

خُلُقا ٦٢ ، ٧٦
طُرُقا ٧٦

قُ

إبريقُ ١٧ ، ٤٥
تصفقُ ٩٦
التصفيقُ ١٧ ، ٤٥
الراووقُ ١٧ ، ٤٥
مطروقُ ١٧
مَشْقَقُ ١٥
يتمطقُ ٨٨ ، ٩٧ ، ١٠٥
يذوقُ ١٧ ، ٤٥

ل

لَ

الرُّجلاَ ٢٥
أعفالَها ٣٨
تحمالَها ٧٣ ، ٨٨
جِريالَها ٤٩ ، ٥٠
دَفالَها ٣٨
رعالَها ٧٣
سجالَها ٧٣
وخلالَها ٣٤ ، ٣٨
ورجالَها ٣٨
وسعى لها ٧١
وطحالَها ٣٨

لُ

الآملُ ٧٨
الأصلُ ٣٤
البطلُ ٧٨
تأتكيلُ ٧٨
تُحتَمَلُ ٧٨
تخيتلُ ٢٤
تعتزلُ ٧٨
تَقيلُ ٣٧
جهلُوا ٧٨
خبلُ ٦
خضيلُ ٥١ ، ٥٥ ، ٩٧ ، ١٠٣
الرجلُ ٢٠ ، ٨٥
زَجيلُ ٣٤
شَكَلُ ٧٨
شميلُ ٣٤
شولُ ٥٥
عَجيلُ ٣٤
عُجُلُ ٧٨
العجلُ ٤٥
عُزْلُ ٧٨
الغيلُ ٧٨
فُتُلُ ٧٨
الفُضُلُ ٧ ، ٥٥
فنمتثيلُ ٧٨
الكَسَلُ ٣٤
مخبَّلُ ٥٧
مرعبلُ ٥٧
معتدلُ ٧٨
معتميلُ ٥٥ ، ٩٧

مكتهِلُ ٣٤
نُزُلُ ٣١ ، ٧٨
نفتعِلُ ٧٨
نَتنَفلُ ٧٨
نهلوا ٥٥
هَطِلُ ٣٤
واحتملوا ٧٨
والغزَلُ ٥٥
وتبتهِلُ ٧٨
وتمتزِلُ ٧٨
وتنزِلُ ٥٧
الوَجِلُ ٣٠ ، ٣٤ ، ٩٧
الوعِلُ ٧٨
ومفصِلُ ٥٧
ونتمِلُ ٢٣
وينتضِلُ ٧٨
يا رجُلُ ٣٠
يتسربلوا ٥٧ ، ١٠٤
يتهيَّلُ ٥٧
يَعتقِلُ ٥٧
أبيلُها ٢٥
أكسالُها ٥٠
فسيلُها ٣٢
قَبولُها ٢٥

لِ

الآلِ ٨٤
الأبطالِ ٦٥ ، ٦٩
الأثقالِ ٦٥
الأذيالِ ٦٥ ، ٩٥
أشغالي ٨٤
أطفالِ ٦٥ ، ٩٥
الأغلالِ ٦٥
بحيالِ ٦٥
البُخَّالِ ٦٥
جُنْبُلِ ٣٣
الجوّالِ ٨٤
الرجالِ ٦٥ ، ٩٥
زُلالِ ٨٦
سؤالي ٣١ ، ٦٥ ، ٨٤
شِمْلالِ ٨٤
الموالي ٦٥

الفِعالِ ٦٥ ، ٨٥
مُبتَذَّلِ ٣٣
المتَبذلِ ٣٣
المُتَصلصِلِ ٣٣
المحالِ ٦٥
مُحْوِلِ ٣٠
مُفْضِلِ ٣٣
المُكبِلِ ٣٣
مُكمَّلِ ٣٣
الهدالِ ٤٠ ، ٨٦
والأعمالِ ٨٥
وَشمالِ ٣١
يُحَوَّلِ ٣٠

لْ

أضلْ ٢٥
سائلهْ ٧٦

م

مَ

الزكاما ٥١ ، ١٠٤
كراما ٥١ ، ١٠٤

مُ

خرطومُ ١٠٥
فاحمُ ٤٠
متناعمُ ٤٠
المزكومُ ٥١ ، ١٠٥
إبهامُها ٤٤
إكامُها ٩٢
ختامُها ٤٤
زمامُها ٤٤
لَوّامُها ٩٢
مُدامُها ٤٤
نيامُها ٤٤
ونِيدامُها ٤٤

مِ

توهُمِ ٨٩
جُرْهُمِ ٢٤
شُيْهَمِ ٢٤
المعْلَمِ ٤٤
مُقَدَّمِ ٤٤

وتكرمي ٤٥

يُكلّمِ ٤٤

مْ

تَفِيمْ ٦٩

تلتطمْ ٦٩

خَذِمْ ٧٢

المَجَمْ ١٦

عُليمْ ٨٧

فَأُوريشَلَمْ ١٦

مُنجَذِمْ ٨٣ ، ١٠٠

يلتئمْ ٣٩ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ١٠٠

يلتزمْ ٦٩

ينحطمْ ٦٩

ن

نُ

شؤونُ ٧

نْ

أَجُنْ ١٦

أُزَنْ ٣٢

اطمأنّْ ٩٧

الأغنّْ ٩٨

أُهَنْ ٦٣

بَلَّمَنْ ٨٩

زَنْ ٦٣

الرَّدَنْ ١٦

رَزَنْ ٨٩

السُّنَنْ ٨٩

الظَّمَنْ ٤٨

الفتنْ ٩٨

القَرَنْ ٦٣

كالفَدَنْ ١٦

كاللبنْ ٣٢

المِنَنْ ٨٩
والحَزَنْ ٨٣
وَدَنْ ٤١ ، ٥١ ، ٩٦
الوسَنْ ٤١ ، ٥١ ، ٩٦
يُجَنْ ٨٣
يحن ٩٨
يَضَنْ ٨٩
يَفَنْ ٨٣

ه

منهابها ٤٧ ، ٥٩ ، ١٠٥

٤

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني . مصور عن طبعة دار الكتب . الجزء التاسع سنة ١٩٦٣ م

٢ ـ جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي . دار صادر . بيروت سنة ١٩٦٣ م

٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية . المجلد الثاني

٤ ـ ديوان أبي نواس . تحقيق عبد المجيد الغزالي . دار الكتاب العربي . بيروت ١٩٥٣ م

٥ ـ ديوان الأعشى الكبير . شرح الدكتور محمد محمد حسين . المطبعة النموذجية بالقاهرة سنة ١٩٥٠ م

٦ ـ ديوان شعر الأعشى . مطبعة أدلف هلزهوسن . بيانه ١٩٢٧ م

٧ ـ الروائع . فؤاد أفرام البستاني . العدد ٣١

٨ ـ شرح ديوان زهير بن أبي سلمى . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٤ م

٩ ـ شرح القصائد الطوال الجاهليات . الأنباري تحقيق عبد السلام محمد هارون . دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م

١٠ ـ شعر الأخطل تعليق الأب أنطون صالحاني . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٨٩١ م

١١ - شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو . طبعة ثانية . دار المشرق . بيروت
١٢ - الشعر والشعراء لابن قتيبة . تحقيق أحمد محمد شاكر . دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م
١٣ - طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجمحي . شرح محمود محمد شاكر ج ١ . دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م
١٤ - في الأدب الجاهلي . الدكتور طه حسين . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٢٧ م
١٥ - محاضرات الدكتور طه حسين في الأدب الجاهلي .
١٦ - مختار الشعر الجاهلي - شرح مصطفى السقا . طبعة ثانية . مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٤٨ م

٥

فهرس الموضوعات

المقدمة ٣

الفصل الأول : حياة الأعشى ٥

١ ـ اسمه ونسبه ولقبه ٦

٢ ـ موطنه ٧

٣ ـ مولده ٨

٤ ـ أهلوه ٨

٥ ـ زواجه وأسرته ٩

٦ ـ تطوافه ١٠

٧ ـ تأثره بالبيئات الشعرية ١٤

٨ ـ مذهبه في الحياة ٢٠

٩ ـ دينه ٢٣

١٠ ـ وفاته ٢٦

الفصل الثاني : أغراضه ٢٨

١ ـ غزله ٢٨

٢ - خمره ٤٢

٣ - مدحه ٦١

٤ - فخره ٧٦

الفصل الثالث : فنه ٨٢

١ - بناء القصيدة ٨٣

٢ - أسلوبه ومعانيه ٨٦

٣ - خصائصه الفنية ٩٠

٤ - موسيقا شعره ٩٣

٥ - منزلته ١٠١

دليل ما اشتمل عليه الكتاب

المقدمة .... ٣ ـ ٤

موضوعات الكتاب .... ٥ ـ ١٠٥

الفهارس ١٠٦

١ ـ فهرس الأعلام والقبائل .... ١٠٧ ـ ١١٠

٢ ـ فهرس المواطن والبلدان .... ١١١ ـ ١١٢

٣ ـ فهرس القوافي .... ١١٣ ـ ١٢١

٤ ـ فهرس المصادر والمراجع .... ١٢٢ ـ ١٢٣

٥ ـ فهرس الموضوعات .... ١٢٤ ـ ١٢٥

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة الشرق لحلوح ١٨٧١٣